وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

خير الدين الزركلي
شاعر الوطن ...



د. أكرم جميل قنبس

خير الدين الزركلي

شاعر الوطن ...

تصميم الغلاف

فراس نعوف

د. أكرم جميل قنبس

خير الدين الزركلي
شاعر الوطن ...

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١١م

خير الدين الزركلي شاعر الوطن.../ أكرم جميل قنبس . - دمـــشق :
الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م . - ١٢٠ ص ؛ ٢٤ سم.

(دراسات في الأدب العربي ؛ ٤)

١ - ٩٢٨: الزركلي، خير الدين ق

٢ - ٨١١,٩٥٦١٠٠٩ ق ن ب خ ٣ - العنوان

٤ - قنبس ٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

دراسات في الأدب العربي

«٤»

آراء في الشاعر

... كان موته مفاجأة لي، لأنّني كنت أتمنّى لقاءه، والجلوس معه، والاستماع إلى حديثه...

العماد مصطفى طلاس

... سعيت إليه، وخُيّل إليّ أن الشاعر الكبير، ينبعث من قلب التاريخ، وأنّني في جلوسي إليه، أجلس إلى التاريخ نفسه...

د نجاح العطّار

وزيرة الثقافة في سورية ـ سابقاً

نائب رئيس الجمهورية العربية السورية

« خير الدين الزركلي، شاعر مجيد معاصر، من أكبر شعراء القومية العربية، ومن أرقّهم عاطفة، وأصفاهم أسلوباً... »

الشاعر أنور العطّار

«... ومن أدباء دمشق، الشاعر المُجيد السيد خير الدين الزركلي، رأيته ينحو في شعره نحو فلسفة المعرّي»

محمد الخضر الحسني

شيخ الجامع الأزهر

«خير الدين الزركلي، أحد الشعراء القلائل، الذي خالطت أشعاره حياتنا منذ عهد الطفولة، فكانت كالنقش على حجر...»

الشاعر شوقي بغدادي

«خير الدين الزركلي، قمّة باذخة من الأدب والفن، يقف إلى جوار حافظ إبراهيم وبشارة الخوري، وإيليا أبي ماضي وبدوي الجبل...»

الشاعر أحمد الجندي

* * *

m

لقد وقع الوطن العربي في النصف الأول من القرن العشرين تحت وطأة الاحتلال الاستعماري الجديد، على حين كان أبناؤه، ينتظرون رحيل الدولة العثمانية، وإنهاء احتلالها الذي دام أربعة قرون، عانى فيه الوطن ما عانى من الموت الثقافي والفكري، والجمود الحضاري، والتدهور الاقتصادي والاجتماعي، إلى جانب التضحية بأكبر عدد من سكان هذه الأمة، إثر المصادمات التي كانت تقع بين الثوار وعساكر الاستعمار القابع فوق صدر الوطن.

ونتيجة تفتح الوعي العربي، والدخول في مرحلة اليقظة العربية، حملت نخبة من أبناء الوطن شعلة الكفاح والثورة، وبدأت تسير في طريقها، غير مبالية بما ستلقاه من مضايقات وملاحقات، وسجن أو نفي، أو إعدام.

وقد كان شاعرنا «خير الدين الزركلي»، واحداً من هؤلاء الذين عاصروا مرحلة الحكم العثماني، وغنّوا لفجر الاستقلال الذي سيتحقق بعد الحرب العالمية الأولى، وشاهد بأم عينيه، كيف انهارت الأماني الشعبية إثر دخول الفرنسيين إلى بلده الحبيب (سورية)، فانهار بذلك حُلم الاستقلال والتحرر، وبدأ الشعب العربي مرحلة صراع جديدة مع القوى الغازية للوطن العربي.

وتصدّى الشاعر الزركلي للفرنسيين بفكره وقلمه، فاعتُبر محرضاً للثورة ضد الفرنسيين، ومعارضاً لدخولهم، فحكموا عليه بالإعدام، مما اضطره لمغادرة دمشق، متوجهاً إلى بلاد الحجاز. وهناك من يقول: «إن الفرنسيين حكموا عليه بالإعدام لأنه خرج مع القوّة المتصديّة للفرنسيين بقيادة الوزير الشهيد «يوسف العظمة».

ومهما يكن، فإن كان الأمر الأوّل فهو جهد فكري، وإن كان الأمر الثاني، فهو تضحية بالنفس، وكلاهما في سبيل الوطن، وحُكْمُ الفرنسيين واحدٌ، هو الإعدام.

وهنا تبدأ مرحلة الكفاح والنضال ضد معركة الحياة والاستعمار ويعيش الشاعر حياته، متنقلاً في مختلف البلاد العربية. فهو المواطن الذي وُلد في بيروت من أبوين دمشقيين، ونشأ وترعرع في دمشق، وتجنّس بالجنسية العربية في الحجاز، وشارك في إنشاء إمارة شرقي الأردن مع الأمير «عبد الله بن الحسين» ثم توجّه إلى فلسطين أيام صراع العرب الفلسطينيين مع اليهود والبريطانيين. ثمّ توجّه إلى مصر (١٩٣٤) حين صدر قرار تعيينه مستشاراً للوكالة (ثم المفوضية) العربية السعودية بمصر، ومثّل المملكة العربية السعودية في عدة مؤتمرات دولية، ثم نُدب في عام ١٩٤٦ لإدارة وزارة خارجيتها، ثم وزيراً مفوضاً ومندوباً دائماً لدى جامعة الدول العربية ١٩٥١، ووقتها باشر طبع كتابه (الأعلام).

ثم عين بعد ذلك في عام ١٩٥٧ سفيراً ومندوباً للمملكة في المغرب، توجّه منها إلى الحياة في بيروت، وقد سُمّي سفيراً في وزارة الخارجية السعودية.

وقد تلفّت الشاعر منذ مطلع شبابه إلى معالي الأمور، ونظر إلى نضال قومه نظرة الجدّ، فعكف على رسم النضال والكفاح، وكان شعره سجلاً للأحداث النضالية الوطنية التي جرى أكثرها وهو بعيد عن موطنه. والشعر

عنده شعور ينبض به قلبه، حين تثيره الأحداث الكبرى، وحين تدغدغه ذكريات الوطن، وذكريات الأمجاد العربية، وحين يبهجه منظر جمال الطبيعة، أو سرّ من أسرار الحياة الغامضة.

وقد عاش الشاعر وفي صدره حبّ الأرض والوطن، ومرارة الغربة والتشرد، وكان الهم الوطني هو الهاجس الأول، فبات البلبل الصّداح الذي يعزف للوطن والأمّة، ويغني للحرية، ويضرم الحقد في النفوس من أجل الثورة ضد المستعمرين لطردهم من أرضنا العربية... وكثيراً ما كان الشاعر، يجاهر بمن لا يكون مخلصاً في موقفه الثوري. وحبّه الوطني كبير، يتعدّى الحدود والخرائط، وقد كان يتألم كثيراً لجراح وطنه، وينبعث الأمل في نفسه كلّما هبّت ثورة، ونادى منادٍ للجهاد، كما كان يحرّض الشعب باستمرار للثورة ضد المستعمرين وضد عملائهم من الحكام.

«إنه شاعر نذر نفسه لوطنه، لآماله، لآلام، عرف قدسية الكلمة، فعاش في حرابها، وألهب بها الغاصبين والمستعمرين بشواظ من نار، بقدر ما ألهب المشاعر وأثار العواطف، وأثر في العقول، أحبّ وطنه بمشاعره وأحاسيسه كلّها، فكان بشعره الشعلة المضيئة في درب الحياة»[١].

«وهو من أعظم من أنبغتهم دمشق، كما أنه عالم ترك للعرب ثروة لا تقدّر بمال، هي الأعلام، وهو شاعر عظيم، وإن كان ترك، فعوّض عن الشعر بالأعلام»[٢].

---

(١) مجلة الثقافة السورية ــ العدد ــ شباط ١٩٧٧ ــ الأستاذ مدحة عكّاش.

(٢) حديث للدكتور عدنان الخطيب مع المؤلف في مجمع اللغة العربية بدمشق يوم ١٩٨٩/٥/٢٧.

إنه شاعر يملك رهافة الحس، ودّقة التعبير، وجمال الصورة الشعرية، كما يحمل أسلوباً لطيفاً واضحاً، يبتعد فيه عن التعقيدات اللفظية واللغوية، فالماء يتدفق من الينبوع زلالاً صافياً.

إنه شاعر، عُني بقضايا وطنه، وجدّد في مضمون شعره وموسيقاه، يتجلّى خياله في مضامين (الوطن، الحنين، الذكرى، الأمل، الوفاء، الألم، غدرات الزمان، الاستعمار، جرائم المستعمر، التنديد بالمتخاذلين، تحريض الهمم للثورة، الحرية، الاستقلال، التضامن...».

لقد اهتم الشاعر بكل ما يمكّن الوطن من النهوض، ويحمل له الخير والمحبة والسلام، فوطنه هاجسه الأول ــ يوم كانت كلمة الوطن والوطنية تقود إلى حبل المشنقة أو السجن ــ والثورة أداة خلاصه وحريته، ويكفيه فخراً أنه علم الأعلام وحامل لواء الشعر والجهاد.

د أكرم جميل قنبس

دمشـق

* * *

موجز ترجمة الشاعر بقلمه(*)

خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي (بكسر الزاي والراء) الدمشقي، ولدْتُ ليلة ٩ ذي الحجة ١٣١٠ (٢٥ يونيه ١٨٩٣) في بيروت، وكانت لوالدي تجارة فيها، وهو وأمّي دمشقيان.

ونشأت بدمشق، فتعلمت في إحدى مدارسها الأهلية، وأخذت عن علمائها، على الطريقة القديمة، وأولعت بكتب الأدب وقُلت الأبيات من الشعر، في صباي، وأدّيت امتحان (القسم العلمي) في المدرسة الهاشمية. ودرّست فيها. وأصدرت مجلة «الأصمعي» أسبوعية، فصادرتها الحكومة العثمانية، لصورة، كتبت أنها صورة «الخليفة العربي» المأمون. وذهبت إلى بيروت، فانقطعت إلى الكلية العلمانية (لاييك) تلميذاً في دراساتها الفرنسية، ثم أستاذاً للتاريخ والأدب العربي فيها.

ورجعت في أوائل الحرب العالمية الأولى، إلى دمشق، وأصدرت بها، بعد الحرب (١٩١٨) جريدة «لسان العرب» يومية، مع أحد الأصدقاء. وأقفلت؛ فشاركت في إصدار «المفيد» يومية أيضاً، وهيّأت للطبع مجموعة من شعري، سمّيتها «عبث الشباب» فالتهمتها النار، وأكلت أصولها، واسترحت منها وأرحت!

(*) اعتمدنا في هذه الترجمة على ما أورده الشاعر نفسه في مؤلفه الأعلام ــ الجزء الثامن ص٢٦٧ ــ الطبعة الرابعة ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٧٩.

وعلى أثر وقعة ميسلون، في صباح اليوم الذي كان الفرنسيون يدخلون به دمشق (١٩٢٠) غادرتها إلى فلسطين، فمصر، فالحجاز، وصدر حكم الفرنسيين (غيابياً). بإعدامي، وحجز أملاكي. وفي سنة ١٩٢١ تجنّست بالجنسية العربية في الحجاز. وانتدبني الملك حسين بن علي لمساعدة ابنه «الأمير عبد الله»، وهو في طريقه إلى شرقي الأردن، وكان الظنّ به حسناً، فعدت إلى مصر، فالقدس. واصطحبت منها إلى الصلط فعمان، جماعة، مهدت معهم السبيل لدخول عبد الله وإنشاء الحكومة الأولى في عمان.

وسُميت في تلك الحكومة مفتشاً عاماً للمعارف، فرئيساً لديوان رياسة الحكومة (١٩٢١ ــ ١٩٢٣)، وفي خلال ذلك أبلغت حكومة «الجمهورية الفرنسية» بيتي في دمشق، أنّها قررت وقف تنفيذ حكمها عليّ، فكانت فرصة لي لزيارة دمشق، والعودة منها بعائلتي إلى العاصمة الأردنية...

وقصدت مصر، فأنشأت «المطبعة العربية» في القاهرة (أواخر ١٩٢٣)، وطبعت فيها بعض كتبي، ونشرت كتباً أخرى.

وثارت سورية على الاحتلال الفرنسي (١٩٢٥) فأذاع الفرنسيــون حكماً ثانياً (غيابياً أيضاً) بإعدامي! وساءت صحتي في عملي بالمطبعة فبعتها سنة ١٩٢٧.

واستجمعت ثلاث سنوات، زرت في خلالها الحجاز، مدعوّاً بعد أن تسلّم آل سعود مقاليد الحكم فيه، وأصبح رعاياه ــ وأنا أحدهم ــ متمتعين برعايتهم.

وذهب إلى القدس (١٩٣٠) فأصدرت مع زميلي جريدة «الحياة» يومية، وعطلتها الحكومة الإنكليزية. فاتفقت مع آخرين على إصدار جريدة يومية أخرى في «يافا» وأعددنا لها المطبعة، وأصدرنا العدد الأول منها.

وكنت قد فوتحت في أنّ إلي عملاً في الحكومة السعودية الفتية، وأجبت بالشكر، وأبلغني صاحب السمو الملكي الأمير فيصل آل مسعود، تعييني

(١٩٣٤) مستشاراً للوكالة ثم المفوضية العربية السعودية بمصر، فتركت الجريدة لمن وإلى إصدارها، وتحوّلت إلى القاهرة.

وكنت أحد المندوبين السعوديين، فيما سبق إنشاء «جامعة الدول العربية» من مداولات دولية، وشاركت في مؤتمرات أدبية واجتماعية. وانتدبت (١٩٤٦) لإدارة وزارة الخارجية، بجدة وصدر مرسوم ملكي بأن أتناوب مع صديقي، بل أخي، الشيخ يوسف ياسين، وزير الخارجية بالنيابة، العمل في الوزارة، وفي جامعة الدول العربية معاً.

وسُميت (١٩٥١) وزيراً مفوضاً ومندوباً دائماً لدى الجامعة، فشعرت بالاستقرار بمصر، وباشرت مع أعمالي الرسمية طبع هذا الكتاب (الأعلام).

وَعُيِّنت (١٩٥٧) سفيراً ومندوباً ممتازاً ــ حسب التعبير الرسمي ــ في المغرب، حيث آلت إليّ عمادة السلك السياسي في المغرب، فقمت بها مدّة ثلاث سنوات، ومرضت سنة ١٩٦٣، ودعيت إلى الرياض، فمنحت إجازة للراحة والتداوي، غير محدودة. واخترت الإقامة في بيروت، فعكفت على إنجاز كتاب كنت قد بدأت بوضعه، في سيرة عاهل الجزيرة الأول «الملك عبد العزيز آل سعود» وهيأته للطبع سنة ١٩٧٠. وكان المجمع العلمي العربي بدمشق قد تفضّل (عام ١٩٣٠) فضمّني إلى أعضائه، وكذلك مجمع اللغة العربية بمصر (١٩٤٦) والمجمع العلمي العراقي في بغداد (١٩٦٠)، وقمت برحلات إلى الخارج أفادتني:

الأولى: إلى إنكلترا (١٩٤٦) ومنها إلى فرنسة، ممثلاً لحكومتي في اجتماعات المؤتمر الطبي الدولي بباريس.

والثانية: إلى الولايات المتحدة الأميركية (١٩٤٧)، بمهمة رسمية، غير سياسية، أمضيت فيها سبعة أشهر بين كليفورنية وواشنطن ونيويورك وغيرها. وحضرت في خلالها بعض اجتماعات هيئة الأمم المتحدة.

والثالثة: إلى أثينا العاصمة اليونانية (١٩٥٤) بصفة «وزير مفوض ومندوب فوق العادة» وجعلت طريق عودتي فيها إلى استانبول، لزيارة بعض مكتباتها، وإلى حلب فبيروت، فالقاهرة.

والرابعة: إلى تونس (١٩٥٥) مندوباً لحضور مؤتمر إقامة الحزب الدستوري فيها. وعدت منها ماراً بإيطاليا حيث تيسّر لي في خلال شهرين الطواف في أهم مكتباتها وما زلت (سنة ١٩٧٠) في بيروت، أقوم منها بين حين وآخر برحلات إلى العربية السعودية موطني الثاني، ودمشق والقاهرة وتركيا وإيطاليا وسويسرة. وفي عاصمة هذه طبيب أتردد إليه في ربيع كل عام.

أما ما نشر من كتبي، فهو:

١ ــ ما رأيت وما سمعت، وهو رحلتي الأولى من دمشق إلى فلسطين فمصر فالحجاز، طبع سنة ١٩٢٣.

٢ ــ عامان في عمّان. من مذكراتي عن عامين في مدينة عمان، عاصمة الأردن. طبع الجزء الأول من سنة ١٩٢٥.

٣ ــ الجزء الأول من ديواني الشعري، وفيه ما نظمت إلى سنة صدوره ١٩٢٥.

٤ ــ الأعلام. الطبعة الأولى في ثلاثة أجزاء سنة ١٩٢٧.

٥ ــ الأعلام. الطبعة الثانية في عشرة مجلدات.

٦ ــ ماجدولين والشاعر، قصة شعرية صغيرة.

٧ ــ شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز.

وبين يديّ، مما يصلح لأن يهيّأ للنشر:

١ ــ الملك عبد العزيز في ذمة التاريخ.

٢ ــ الجزء الثاني من ديواني.

٣ ــ صفحة مجهولة من تاريخ سورية في العهد الفيصلي.

٤ ــ الجزء الثاني من (عامان في عمّان).

٥ ــ قصة تمثيلية، سميتها <وفاء العرب> مُثّلت أكثر من مرّة، ابتداء من سنة ١٩١٤ ببيروت.

٦ ــ مجموعة كبيرة في الأدب والتاريخ، قديماً وحديثاً، لم أنسقها ولم أسمّها إلى الآن.

٧ ــ المستدرك الثاني (المشرف: ضمنت كل مادة منه في موضعها من هذه الطبعة الرابعة من «الأعلام»).

٨ ــ الإعلام بمن ليس في الأعلام (المشرف: ضمنت، كذلك كل مادة منه في موضعها من هذه الطبعة الرابعة من «الأعلام»).

خير الدين الزركلي

* * *

هذا ما كتبه المؤلف رحمه الله بنفسه في الطبعة الثالثة من الأعلام، وقد تفضل صديق المؤلف الأستاذ ظافر القاسمي، أستاذ العلوم الإسلامية في الجامعة اللبنانية، بإكمال ترجمة حياته، قال: في الثالث من ذي الحجة ١٣٩٦ ــ ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٦، طوى الموت أبا غيث، خير الدين الزركلي في مستشفى بالزمالك في مدينة القاهرة. وكان قد أصيب أوائل عام ١٩٧٦ وهو في بيروت، بدوار وغيبوبة، نقل على أثرهما إلى مستشفى الجامعة الأميركية ببيروت، والأحداث فيها ملتهبة، فظلّ غائباً عن الوعي خمسة أيام متواصلات، وفي اليوم السادس، أفاق، وكان أول ما طلب فنجاناً من القهوة، ثم غاب صوته، وأخذ يطلب حاجاته كتابة، حتى أجريت له عدة عمليات، زرعت في إحداها بطارية في جوار قلبه. فأخذ يسترد بعد ذلك عافيته شيئاً فشيئاً، لاسيما وأن قواه العقلية عادت إليه كاملة.

ولمّا أصبح قادراً على المشي نصحه أطباؤه بمغادرة المستشفى، لاسيما وأن إدارة المستشفى باتت في مسيس الحاجة إلى الغرف بالنظر لتكاثر الجرحى، فخرج منه راغماً إلى فندق قريب من بيته، واستأنف فيه عمله.

وفي شهر آب ١٩٧٦، قدم إلى دمشق، فمكث أياماً في ضيافة ابن عمه الشاعر سليم الزركلي، ثم قصد مصيف بلودان، حيث التقيت به، وجلسنا ساعة تحدثنا فيها بأمور كثيرة، ليس فيها ما يدعو إلى الحزن واليأس كما أنس هنالك بلقاء صديقه شاعر الشام شفيق جبري، فتباكيا، وكان لقاءً مؤثراً جداً.

وفي أواخر آب سافر إلى القاهرة حيث ولده الدكتور غيث وبنتان له، وقد أخبرني الأستاذ حمد الجاسر أن الفقيد أُدخل بُعيد هبوطه القاهرة مستشفى

في المعادي، وسرعان ما أخذت صحته في التحسن، فنقل إلى مستشفى في الزمالك، وهناك ساءت صحته وتدهورت سريعاً، إلى أن فاضت روحه إلى بارئها في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٦.

وقد أقام له النادي العربي بدمشق في كانون الثاني ١٩٧٧ حفلة تأبين تكلم فيها بعض تلاميذه وأصدقائه، لقد طوى الموت العلم الذي خلّد الأعلام، وإنا لنطمح أن تجود بمثله الأيام.

* * *

الوطن والشاعر

الوطن مهد الشاعر، وملاعب صباه، وظلال شبابه وشيخوخته. ومن هذا المنطلق كان الوطن عظيماً في ذات الشاعر، وكان الشـــاعر فخوراً وكبيراً بوطنه.

فالوطن الجميل، هو الذي يجعلك تتعلق بكل حبّة من ترابه، وبكل بارقة من آماله، وبكل إشراقة من ضيائه. وإذا كان المرء يعيش هذا التواصل الروحي مع الوطن، وإلى حدّ الجنون في العشق والهوى، فبورك هذا الوطن، وبورك هذا العاشق.

الوطن قلب نابض بالحب والخير والوفاء، وقلب الشاعر هو الوفي لهذا الحب، والشاكر لهذا الخير، والوفيّ لهذا الوفاء، ومن هنا نلاحظ أن الوطن هو الهاجس العظيم في حياة الشاعر خير الدين الزركلي، يقيم في محرابه صلاته المقدسة، ويجدّد تحت شـــمسه جذوة عشقه ونجواه، وقد فضّله على بلاد العالمين.

ومن الطبيعي إذاً، ألا يرى العاشق حُسْنَاً إلا في وجه من عَشِقَ، ولا تقرّ عينه إلا برؤية من أحب، ولا يتنشق رائحة طيبة إلا من جهة من كان الهوى، ولا يطيب له السهر والألفة إلا مع من يألفه ويهواه:

العـــين بعـــد فراقهـــا الوطنـــا   لا ســـاكناً أَلِفَـــتْ ولا سَـــكَنا[1]

---

(١) الزركلي، خير الدين ، ديوانه ص٢١.

وحبّ الشاعر لوطنه كبير، إنه حبّ موقد، ناره مضرمة، وجمره متوهج بين جوانحه، يعصف فيه الشوق والألم. وقلب الشاعر، وفيٌّ كل الوفاء، محبّ، مخلص في حبه، إنه كصاحبه، ما يزال قائماً على حفظ العهد والودّ، ولو أنه لم يطلق زفراته وآهاته، لنكره الشاعر، وتبرأ منه، لكنّه القلب المفعم بالوفاء والشوق والإيمان، المطهّر بتراب الوطن:

والقلب لولا أنّةٌ صَعِدَت أنكرته، وشككت فيه أنا[1]

وقلب الشاعر، يتقلّب بنار الغربة، وألم الفراق، فليت أحبابه، علموا، وأدركوا ما ينتابه من العذاب، وما يلقاه من قسوة الفرقة والبعد.

يقول شوقي بغدادي:

«... لم يكن حب الوطن بالنسبة لخير الدين الزركلي، المدجنة والتلاميذ الصغار. لقد كان تجربة «حيّة» خطرة كالقنابل الموقوتة التي نحملها تحت ثيابنا، وتهدّد أبداً بنسفنا في كل لحظة، وحين يصدر الشعر عن معاناة بمثل هذا الصدق والخطر، فلابد أن يحرّك في الموهبة وتراً خاصّاً لرنينه وقع نفاذ هو الذي جعلنا ندرك بالفطرة، ونحن صغار، أننا حيال شاعرية متوهجة نادرة المثال، فنحفظ أشعاره ونسترجعه في كهولتنا كأعذب ذكرى من ذكريات الطفولة. وكأن شاعرية خير الدين الزركلي، كانت موقوفة على وطنه، مكبَّلاً بالقيود، مستحيلاً عليه بلوغه، حتى إذا تحرّر الوطن، وصار المستحيل ممكناً، توقفت قيثارة الشاعر، كي يحلّ مكانها مجهر العالم، فيكرّس باقي حياته للبحث والكشف عن تاريخ أُمَتّه من خلال أعلامها، فيصدر معجمه الشهير «الأعلام»، جزءاً بعد جزءٍ ومجلّداً بعد آخر...

إنّ الإنسان من جيلنا لابدّ أن يأخذه الأسى حين يتذكّر شاعر الثورة السورية وعالم التاريخ القومي»[2].

---

(١) الزركلي، الديوان ص٢١.

(٢) جريدة الثورة - العدد (٤٢٣٦) ١٩٧٦/١٢/١١.

لقد أحب الشاعر الحياة فوق تربته الطيبة، وإلى جانب أهله وأحبابه، وتمنّى ألا يفارقهم، ويبتعد عنهم، إلا يوم تلفظ روحه الطاهرة أنفاسها الأخيرة.

وكان يشق عليه أن يرى وطنه محتلاً، مسلوب الحرية والإرادة، يعاني من ظلم الغزاة والطامعين، ويرسف تحت قيودهم التي كثيراً ما أدمت معصميه ومقلتيه.

ووطن الشاعر، الذي وسع الكون إباءً وكبرياء، وفاق أهل الأرض مروءة وكرماً ونخوة، جرّد الغزاة سيوفهم في صدره، وأعدوا عدّتهم، كي ينالوا من إبائه وعزّته، ويبعثوا في أرضه الفســاد والظلم، وينهبوا خيراته. لقد تقدّموا إليه، وهم يحملون الأفكار الثورية والإنسانية، ويتحدثون بلغة الحرية والدين، لكن الحقيقة أثبتت عكس نظرياتهم. لقد تحدّثوا بلغة الإنسان، لكنّهم سرعان ما عاملوا الناس بلغة سفك الدماء، والضرب والإهانة والطرد والملاحقة!

لقد تحدّثوا بلغة الحرية، لكنهم سرعان ما فرضوا الحصار على المواطنين، ونكلوا بالمناضلين، وأهانوا الشرفاء، وكمّوا الأفواه..!

لقد تحدّثوا بلغة الدين والأخلاق، لكنهم سرعان ما نشروا الفساد والدعارة، وهدموا بيوت العبادة، وباتوا يحرّضون الناس على الفوضى والشذوذ الأخلاقي..!

لقد تحدّثوا بلغة الحماية والوصاية، ولكن سرعان ما بات حاميها حراميها، ومن أتى ليأخذ باليد إلى طريق الهدى والحضارة، بات هو الهادم والمضلِّل..!

وبالرغم من كل ذلك، فقد كان الوطن كبيراً، معتزّاً بأبنائه، شامخاً بهم، شموخ أنف الشاعر على الظلم والعدوان والغربة:

يا موطناً عبــث الزّمــان بــه	**من ذا الذي أغرى بــك الزَّمنـــا**
قد كان لي بك عن سواك غنى	**لا كان لي بسواك عنــك غنـــى**
مـــا كُنْـــتَ إلا روضـــة أُنفـــاً	**كَرُمَتْ وطابَتْ مغرســاً وجنـــى**
عطفوا عليــك فأوســعوك أذى	**وهـــم يــــسمّون الأذى مننـــا**
وحنوا عليك فجــرّدوا قُــضُباً	**مــــسنونة، وتقـــدّموا بِقَنَـــا[1]**

والشاعر الذي أُبعد عن ترابه، وحكم عليه بالإعدام بسبب إعماله الفكر والقوى العقلية ضد الغزاة الطامعين مع نفر من أصحابه، ما يزال يتذكر كل شيء في وطنه... الأرض، الماء، الظلال، الغلال، الطير، الأحباب...

إنه ما يزال العاشق الوفي، الذي يرى الجمال في كل ربوع الوطن، وإذا لمع له بارق الأمل والذكرى، هتف وصدح للأرض.

ويجرّد الشاعر من خياله طائراً، يقف على غصن من أشجار ضفاف نهر النّيل، ويبدو أن الطائر مكسور الجناح، لاعج الشجو والغناء، وهذا يعني أحد أمرين، إما أنه غريب في هذا الوطن، وهذه الضفاف، وإما أن إلفه قد هجره، فبات يرسل ألحانه الشجية، وهنا تلتقي معه ذات الشاعر، وتتبادل معه الشعور والألم، فتطلب منه أن يزيد في شجوه وحنينه، لأن هذا الموقف يذكر الشاعر بأهله وأحبابه، فيعصف به الحنين، ويسري في دمه الشوق، ويعلن بأن هذا الطائر قد ذكّره بنهر بردى وواديه، ساعة تصفّق الطيور بين غدرانه، وتغرّد لمائه العذب الرقراق، الذي ينساب، كي يبعث في نسيج الأرض الخير والغلال والبهجة للنفوس، وإلى جانب ذلك، ما يزال جمر الوفاء متقداً في ضلوع الشاعر، حتى بات مُلْكاً للشوق والحنين، ومسكاباً لدمعٍ لا يجفّ ولا ينضب، بل يزداد انصباباً كلما أراد الشاعر أن يكفكف منه شيئاً.

---

(١) الزركلي، الديوان ص٢١.

إن حب الشاعر لوطنه كبير، وأهله هم الأصل الذي ينشده الشاعر، وهم حياته بكلّ ألوانها:

يا طائراً غنّـــى علـــى غُـصنٍ	**والنّيـل يـسقي ذلـك الغـصنا**
زدني وهجْ ما شئت من شجني	**إنْ كُنْتَ مثلي تعـرف الـشجنا**
أذكرتنـــي مـــا لـــست ناسـيه	**ولـربّ ذكـرى جـدّدت حَزَنـا**
أذكرتنـــي «بـــردى» ووادیـــه	**والطيـــر آحـــاداً بـــه وثُنـــى**
وأحبّـةً أسـررت مـن كلفـي	**وهـواي فـيهم لا عجـاً كَمَنـا**
كـــم ذا أُغالبـــه، ويغلبنـــي	**دَمْـــعٌ إذا كفكفتـــه هَتنـــا**
لـــي ذكريـــاتٌ فـــي ربـــوعهم	**هُـــنَّ الحيـــاةُ تَألُّقـــاً وَسَـــنا**

عندما يعيش الإنسان بعيداً عن وطنه، وكان ابتعد مرغماً، لا مختاراً، يبقى الوطن هو الهاجس، وهو المقدّس، وهو الذي تحنّ إليه نفسك، وتهفو إلى رؤيته، وتقبيله، حتى وإن كان صنماً من الأصنام، لا يضرّ، ولا ينفع، وهيهات أن يقبل الشاعر بديلاً عن هذا الوطن، أو معتقداً غير الذي اعتنق:

إن الغريـــب معـــذّب أبـــداً	**إن حـلّ لـم يـنْعَمْ وإن ظَعنـا**
لو مثّلـوا لـي مـوطني وثنـاً	**لهَمَمْتُ أعبـد ذلـك الوَثَنـا**[1]

ويقول الدكتور سامي الدهان:

وهذا شعر رقيق فيه الحنان والحب والوطنية، يدل على اليأس بعد الأمل، وعلى الهدوء بعد تلك الثورة، يتغنذى به المهاجر الغريب، ويردّده الوطني المخلص، كلمّا اشتاق إلى ملعب الصبّا، ومسرح الشباب، ومراد الأماني والكرامة.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢١.

وهو في لفظه ومعناه يشبه بكاء الثاكل وحزن المفجوع وحنين الغريب، فلا تكلّف ولا صنعة وإنما حسرة تنطلق من القلب، ويخرجها الشاعر في القوافي... [١].

إن الإنسان الذي ولد ونشأ في وطن النضال، لن يكون إلا مناضلاً، ولن يتحول قلبه إلا إلى بركان عندما يتعرض للإهانة، وبذلك يتخلص من نفايات الزمن العفن، ويكسب الأرض ثوباً جديداً.

والشاعر، يغني للحرية والاستقلال، ويغني للثورة التي تُخلِّص أبناء قومه من براثن الظلم والعدوان.

وسورية هي موطنه الأوّل، والتي يعتبرها شريان الوطن الكبير، لذلك فإنه يفتديها بروحه، ويغذّيها من قلبه ودمه، ويوقد لها النور من عينيه وفكره الوثاب. إنه يدافع عنها بكل ما يملك من قوة وعزيمة وإباء، كي تبقى حرة كريمة، خفّاقة الراية، مرفوعة الجبين، لا يدنو من سورها معتد، ولا يقربها دخيل، وإن حدث ذلك فسوف نطهر أرضها بدمائنا، ونسير فوق جماجم المعتدين الذين حسبوا وطننا لقمة سهلة الابتلاع، وتقنعوا بألف قناع، ليدخلوه، ويسلبوه ثرواته وخيراته:

ســــــورية نحــــن لهـــــا   نحمــــــي حماهــــا أبـــــدا

نبنـــي لهــا صــرح الحيـــاة   فــــوق هامــــات العـــــدا[٢]

ويقول الشاعر: إنني هائم في حب بلادي، فماذا عسى الحسّاد أن يتقوّلوا عن هذا الحب؟ وماذا يهمني من كل ما يقال؟ ثم إذا كان هذا الحب

(١) الدهان، سامي الشعراء الأعلام في سورية ص١٥٩...

(٢) الزركلي، الديوان ص٧٥.

يضير الوشاة والعذّال، فليوجّهوا إلى قلبي سهامهم ورصاصهم، ويقتلوه شرّ قتلة، وعندئذ، يكفيه شرفاً أنه مات من أجل الوطن، وفي حب الوطن:

أنـــا في حبّ بـــلادي لا أبـــالي بمـــلام

غضب العاذل؟ فليرشق فؤادي بسهام(١)

ويحترق الشاعر، يوم تحترق الأمّة، وتعطّل عقلها عن التفكير والتدبير، فهي لم تسلك طريق الهداية والرشاد، وتخلّت عن مروءتها ونجدتها، وتركت ركابها تصهل في معاقلها، وتسابقت هي إلى مسارح الذل، وارتضت لنفسها الهوان، فعاشت في ضياع وغربة وظلام:

كيف لا يشجى امرؤ في أمّة عقّت حجاها

سرحت في مرتفع الذلّ وباتت في ظلام(٢)

وتعتبر قضايا الوطن، هي جوهر الصراع النفسي عند الشاعر، والحزن الذي ينتابه، والأسى الذي يعتريه، كل ذلك من أجل الوطن، من أجل تحقيق الحرية والاستقلال، من أجل استرداد الكرامة المفقودة، ومن أجل أن ترفرف رايات العرس الثوري، فيكون الخلاص من المستعمر، وتصفو سماء الوطن:

وطنـــــي طـــــال بكـــــائي	**والأســـــى ممّـــــا عراكـــــا**
أتـــــرى تـــــصفو ســـــمائي	**وكمـــــا أهـــــوى أراكـــــا**(٣)

إن الغيوم المتلبّدة في سماء وطنه، ليست إلا جحافل المستعمرين والطامعين، الذين جاؤوا إلى بلادنا من أجل السلب والنهب والتخريب.

---

(١) الزركلي، ص٨٨.

(٢) نفسه ص٨٨.

(٣) الديوان ص١٣٥.

فيا أيها الوطن المسلوب الإرادة والحرية، والمكبّل بالسلاسل والجراح: سوف أحيا فوق ترابك الطاهر وأعيش تحت ظلالك الوارفة، وإذا انتهى عمري دُفنت تحت سمائك، وفي جوف تربتك، واستقرّت أعظمي بين أحضان أرضك الخيّرة:

فيــكَ محيــاي... ومثــوى   أعظمــي تحــت ثراكــا[١]

وحب الوطن، يرفع من مكانة الشاعر، ويجعله فخوراً، وسامياً، حتى إنه ليرى نفسه بمرتبة النجوم علاءً ورفعة، يحمل في قلبه دفء الوطن وحبّه الكبير، وما هذا الحب سوى نور مشرق في قلب الشاعر، وحياة خضراء، تجعل حياته ريّانة، هانئة، متجدّدة:

أوطاننــا نــسمو بهــا   هــام النجــوم النيّــرات

نحيــا لهــا فــي حُبّهــا   والحــبّ نــورٌ وحيــاة[٢]

والشاعر يحسّ بالحياة جميلة، لأنّه مخلصٌ في حب وطنه، بل إن حبّ الوطن هو الذي يجعله إنساناً حيّاً في الحياة، ولذلك فإن افتداء الوطن حين يدعو أبناءه للجهاد، أمرٌ محبب إلى قلب الشاعر، لأنه يعيش حياته من أجل وطنه، ولذلك لن يبخل عليه بشيء يمتلكه، وهو جادٌ في بذله وتضحيته حتى يزيل القيود التي قيّدت عنق وطنه، ولا يحسب نفسه إنساناً حرّاً كريماً إذا لم يدافع عن وطنه ويحقق أمنياته:

أوطاننــا نحيــا لهــا   ونفتــديها بــالنفوس

إن لــم نُــزِحْ أغلالهــا   لا طلعــت فينــا الــشموس[٣]

---

(١) نفسه ص١٣٥.

(٢) نفسه ص٢٨٩.

(٣) نفسه ص٢٨٩.

ويرى الشاعر أنه في حبّه لوطنه قد زاد على حبّ الأوّلين والأخيرين، وتجاوز فيه كل عشق، وكل عاشق، ويشهد على ذلك صدق عواطفه وأحاسيسه، وصدق ما ينتابه من المشاعر الوطنية والحبّ الوطني، الذي بَرَى جسده، وجعل قلبه يتقلب فوق نار الشوق بالاحتراق والحنين، حتى أصبح هذا القلب موسوماً، يشهد له كل من يراه بالرِّقة والنّحول والاكتواء:

بــلادي لحبِّــك فـــي أضــعلي　　　هوىً جزت فيه حـدود الهـوى

يحيّيـــك قلبـــي فحيّـــي بـــه　　　فؤاداً كواه الجــوى فــانكوى[١]

ويرى الشاعر: أن عشقه لوطنه، كان منذ نعومة أظافره، وقد تربى على هذا الحب، وشرب من لبنه، فَسُحر بجمال بلاده وحبّ وطنه وأرضه.

ولا يعتقدنّ إنسانٌ أنّ حب الزركلي، هو حبّ لبلاد الشام وحدها، أو لدمشق وحدها، فهو قبل كل شيء إنسان عربي، ترعرع فوق تراب دمشق، وتنقل في أكثر البلاد العربية، ولذلك فإن الحب الذي يعلنه الشاعر، هو حبّ للوطن الكبير، وللأرض العربية الممتدة، هو حبّ للشام ولمصر وللعراق، ولليمن وللمغرب العربي، ولبلاد شبه الجزيرة العربية كلّها، وحبّ لكل الأرض ولكل البلاد، ولكل من عشق وعاش فوق تراب وطنه، وأحبّه كما هو حب الشاعر حنينٌ متواصلٌ، وجمر متقدٌ، زادته الغربة والتشرد اشتعالاً، فأصبح ريّاناً مخضلاً:

لِبغــدادَ والــشام والقــاهرهْ　　　وصــنعاء والمغــربِ المــؤنسِ

وبيـــدِ تِهامـــةَ، والحاضــرهْ　　　ونجْدٍ ومن حَـلّ فـي تـونس

هوى دائمٌ فـي ثنايـا الحـشا　　　وحبّ سَقَتْهُ النــوى فــارتوى[٢]

---

(١) نفسه ص٣٢١.

(٢) نفسه ص٣٢٢.

ويقرن الشاعر نفسه وقلبه مع نفس وقلب شعراء قبيلة «بني عذرة»، الذين عُرفوا برقّة قلوبهم، وقوّة أحاسيسهم ومشاعرهم، ووفائهم الكبير للحب والهوى، وهيامهم بمن أحبّوا، جاعلينه كل الأماني وكل الحياة.

والشاعر بموقفه، لا ينعم، ولا يأنس إلا إذا كان في ظلال خمائله الوارفة، يحسّ بفيئها، ويعشق وجهها الذي يتأمّله دائماً. وهذا النعيم والأنس والعشق، كلّه مستمدٌّ من خيرات الوطن. فكبرياء الشاعر من كبرياء الوطن، وكذلك حبّه ومجده وإباؤه:

أيـا وطنـاً همْـتُ فـي حبّـه	**هُيام «بني عذرةٍ» في العَـرَبْ**
نعيمـي وأُنـسي فـي قُرْبـه	**وعليـاؤه لـي نعـم الحَـسَبْ**
وهـل أنـا إلا ابـن أمجـاده	**أَتيهُ وأفخـر فيمـا احتـوى**[1]

وبما أن مجد الشاعر، مستمدّ من مجد الوطن، وعزّة الشاعر من عزّة الوطن، فإن الشاعر سيدافع عن وطنه بكل قوّة، وسيبذل من أجله كل ما يملك ليردّ عنه أذى الطامعين والمغيرين، وسيكون أسداً هصوراً من أسوده الضارية المدافعة، كي يشارك في حمل أعباء الوطن، وتبديد همومه وآلامه ويرفع رايته عالية خفّاقة، ويساهم في بناء حضارته وتقدّمه، ليعيد إليه ما كان فيه من رفعة ورقيّ وعلاء:

أدافـع بـالروح عـن مجـده	**وأدفـع عنـه شـرور العِـدى**
إذا لم أكـن فيـه مـن أُسْـدِه	**ولم أَحْمِه من عـوادي الـرّدى**
فمن ذا الـذي يبتنـي صـرحه	**وينشرُ من عزّه مـا انطـوى**[2]

---

(١) نفسه ص٣٢٢.

(٢) نفسه ص٣٢٢.

وهذا الشعور الوطني الذي يحمله الشاعر، كان شعوره وهو ابن تسعة عشر عاماً. إنه شعور متأجّج، وثورة لاهبة، هدفها إضفاء الربيع فوق ربوع الوطن، ونشر الحب بين أهله، وعشق الحرية، والحثّ على مجابهة الاستعمار من خلال التغنّي بالأمجاد والبطولات.

ويتمنى الشاعر، كما تمنى من قبله «بدوي الجبل»، أن يكون قلبه حمامة بيضاء، ترفرف حول مُقام النبي ﷺ، ليغتسل من كل أدرانه، وينعم بالمغفرة والحب والرحمة، ويشعر بالأمان الأبديّ الخالد:

ألا ليتني حول «المقام» حمامة ... يرفرف بين «المروتين» جناحي

أروح وأغدو، حيث شـــاء لـــي ... طليقاً، غدوّي في يدي ورواحي

أبيت قرير العين أنعم بـــالكرى ... مسائي ممشى غبطة وصـــباحي

أزق فراخـــي هاتفـــاً لهتافهـــا ... وأُرْشِفُها مــن مــاء <زمــزم>

وآمن، لا دهري يروع بظلمـــه ... ولا أهلـــه يغـــشونني بـــسلاح

هذا الهروب إلى حيث مقام النبي ﷺ، هو هروب من الواقع المؤلم، الظالم، الذي يهدّد أمن الشاعر وحياته، لذلك فإنه يبحث عن ملجأ للأمان والراحة.

وإن عشقه لهذا المكان يجعله يأمن على صغاره، ويجعله يُكمل قصّة عشقه لوطنه، وحبّه لأهله، وبهذا يكون تكامل العشق الإنساني الصحيح.

* * *

معايشته لآلام الوطن
وكفاحه الثوري

الشاعر فرد من أسرة العرب، وعلى هذا الأساس فإنه يعيش أفراح هذه الأسرة، ويعيش أحزانها وآلامها.

وقد عايش الشاعر كثيراً من الخطوب التي درجت فوق تراب وطنه، عاش أيام الاحتلال العثماني للوطن العربي، وعاش الحرب العالمية الأولى، والخروج العثماني من بلاده، وعاش قضية خيانة الحلفاء للوعود التي قطعوها للعرب، كما عاش الانقضاض الاستعماري الحديث على وطنه العربي، واقتسامه من جديد، ووقوعه تحت وطأة الاحتلال والموت الحضاري.

وقد عاش الشاعر عصر الثورة العربية الكبرى، حيث حمل أبناء الوطن راية النضال ضد الاستعمار، مطالبين بحريتهم واستقلال بلادهم، فأنشد الشاعر لكل هذه الآلام، ولكل هذا الانبعاث الثوري.

«وما عرف سورية شاعراً برّاً بوطنه، متعلّقاً به، على توالي المحن، مثل خير الدين الزركلي، الشاعر الذي حمل قيثارة العزاء في ليالي الوطن السود، وغنّاه أبقى الغناء وأنقاه، فما ناب «سورية» خطبٌ ولا ألمت بالسوريين ملمة، إلا مسح بأطراف قلبه مواجع المنكوبين ومدامع المعذبين، فهو شاعر الوطن في جهاده ومآسيه، وشعره البلسم الشافي لآلام الصابرين، وجراحات المجاهدين.

وخير الدين، لم يسطع نجمه، ولم يَزْكُ شعره، إلا حينما نزلت بوطنه النكبات عقب الحرب العالمية الأولى، وعقب معركة «ميسلون» التي نشبت بين السوريين بقيادة وزير الدفاع في عهد الملك «فيصل الأول» القائد البطل «يوسف العظمة»، والفرنسيين بقيادة الجنرال «غورو»، ولم يكن هناك تكافؤ بين الحق والباطل، فدخل الفرنسيون «دمشق» وأطاحوا باستقلال «سورية» في اليوم الرابع والعشرين من تموز سنة ألف وتسعمئة وعشرين ميلادية، بعد أن استشهد كثير من المواطنين الأبرار، الذين صبغوا تراب «ميسلون» بدمائهم دفاعاً عن الوطن، فَدُفِنوا إلى جانب مرقد الوزير الشهيد.

هذا هو يوم «ميسلون» العظيم الذي أصبح على كرّ الأيام عيداً للشهداء في مراحل الجهاد، وهذا هو اليوم الذي زاد في قيثارة الشاعر وتراً جديداً ينبض بحب الوطن، ويخفق بالذود عنه.

لهذا اليوم، يوم ميسلون، فضل على الوطن، لأنه دفع بَنيهِ إلى الجهاد ليموتوا كِراماً كما عاشوا كراماً، كما أن لهذا اليوم فضلاً على الأدب، لأنه استثار كبرياءه، فهبّ يذكي حماسة السوريين، ويُنهض هممهم، ويوقظ عزائمهم، ويحملهم حملاً على مواثبة المستعمر الغاصب، الذي سلبهم حريتهم، وهي أشرف ما يعتزون به ويفخرون.

ويأبى القدر إلا أن يضطلع خير الدين بآلام الوطن وأرزائه، وأن يكون وحده الشاعر الذي تألم قلبه لينقى، وعاش شعره ليبقى، وهكذا فقد غادر مدينة «دمشق» خلسة في ليلة (٢٤ تموم ١٩٢٠) بعد أن دخلها الفرنسيون، ميمّماً شطر القاهرة، كما غادر الوطن الصفوةُ المختارةُ من أبنائه، فقرّر المجلس العسكري التابع للفرقة الثالثة من الجيش الفرنسي في الشرق، والمنعقد في «دمشق» في (٩ أغسطس ١٩٢٠) الحكم بالإعدام غيابياً على خير الدين ومصادرة أملاكه، لأنه جاهر بعداء الفرنسيين في جريدته التي يصدرها في

«دمشق» باسم «المفيد»، ولأنه نعتهم بالغدر والخيانة، ودعا السوريين إلى مقاومة هؤلاء الجناة على استقلال سورية، الذين قتلوا حريتها، ووأدوا نهضتها، وعاقوها عن السير في سبيل الحياة، وبذروا في قلوب بنيها البغضاء وطاردوا من شاء لهم الهوى أن يطاردوه من شبابها الأحرار.

على أن خير الدين لم يرهبه الحكم عليه بالإعدام، ولم تفزعه مصادرة أملاكه، لأنه يعلم حقّ العلم، أن للوهم صولة، وتضمحل، وللإرهاب دولة، وتزول، وأن الرجل الذي ألف رؤية المشانق أربع سنوات متواليات، وصلب عليها من إخوانه وأخدانه العدد الكثير، لم يعد حكم الإعدام مما يخيفه، فليلتمس مُحتلو سورية طريقة ثانية لبثِّ الرعب في الأفئدة، وإماتة الشعور في النفوس، وقتل الإيمان الوطني في القلوب، ليلتمسوا أسلوباً آخر، لا يصيب الأجسام، فإنها ذرات تفترق وتجتمع، ولكن يصيب الأرواح فإن فيها المقاتل، وهيهات، عبثاً يحاولون، وسُدى ما يعملون[1].

ويمجد الشاعر شعبه المناضل الذي عرف الحياة، فسلك إليها سبيلها، فما من غالب ومغلوب، وما من منتصر ومنكسر، وإنما الغلبة في النهاية للذي يسقط ويذل ولا يعرف كيف ينهض:

في ذمّة الأجيال نهضةُ أمّةٍ　　　أَوْدَى بها التهويلُ والتهديدُ

وثقت بعهد الأقوياء فأسلمت　　　هيهات ما للأقوياء عهود

ما سجّل التاريخ عبرة وأدها　　　إلا لينهض في الغد المؤود

والشعب إن عرف الحياة فما له　　　عن درك أسباب الحياة محيد[2]

---

(١) علم الأعلام ــ ص٢٥٩. من كلمة لأنور العطار.

(٢) الزركلي، الديوان ص١١٨.

«وأفاق الناس في سورية، أو الجيل الجديد فيها، على اسم >خير الدين الزركلي»... إن الكثيرين فيهم لا يعرفونه صاحب هذا الاسم، ولكنهم يرددونه مع أشعاره التي قرؤوها، أنشدوها فيما بين الأيدي، وتحت الأعين من المجلدات والصحف... وأين يقيم هذا الرجل، الشاعر الذي قال في دمشق وفي الحنين إليها والوفاء لها، وفي جهادها القومي البطل، ما لم يقله كثير من الشعراء؟... هل ضاق به بلدٌ أحبّه فما استطاع مقاماً فيه، وغادره، وإلى أين؟.. لكن هذا البلد لم يعرف عنه، في كل تاريخه إلا أنه الوفيّ للأوفياء المحبّ لمحبّيه من أبنائه.

إن خير الدين الزركلي، الذي حمل شعره الوطني الثائر سلاحاً ماضياً في سبيل حرية بلاده واستقلالها لا يقدر أن يعيش تحت هذه السماء، وفوق هذه الأرض، ما دام الذي حكموا عليه بالإعدام، مرتين اثنتين، الأولى في العام ألف وتسعمئة وعشرين، والثانية في العام ألف وتسعمئة وخمسة وعشرين، هم الذين يحتلون ويحكمون...

وكيف يعود شاعر الشام إلى الشام، وقصائده القومية عناوين وكتب ونداءات، تغلي حماسة ووطنية في أفئدة الأجيال العربية التي تتصاعد في أرض هذا الوطن، في المدارس الحكومية والخاصة، وفي الليالي الدمشقية، الطويلة، الساهرة مع الشعر والفكر، وتقرير الشاعر النازح، والبكاء لبكائه»[١].

وتزاحمت غزوات المستعمرين والمحتلين فوق تراب هذا الوطن، لينهبوا خيراته، ويستغلّوا قدراته وإنسانه، ويرى الشاعر، أنهم لم يدخلوه مساعدين وآخذين بيده - كما زعموا - نحو طريق التقدم والحضارة، بل دخلوه ليعيقوا حضارته، ويسرقوا تراثه، ويبدّدوا الآمال التي كانت معقودة على أقوالهم، وأقوال غيرهم من الذين تعاونوا مع الاستعمار، حتى أصبح

---

(١) جريدة تشرين - ١٩٧٧/٢/١٠ - الأستاذ سعيد جزائري.

المواطن يودّ لو يفرّ من ظلم الغازين والقائمين على الحكم، الذين يرتضون بما يأمر به المستعمر.

وإذا تفرّق أبناء الوطن، وتشتت قوّتهم، وتعدّدت أهدافهم، فمن أين لهم أن يصونوا سُمُوَّ علم بلادهم، الذي هو بحاجة إلى قومٍ مدافعين منافحين عنه وعن الأرض التي يرتفع فوقها؟

وطنٌ تزاحمت الخطوب ببابــه	**وجفاه مَنْ عُقدتْ بهــم آمالــه**
أنّى أَنَخْتَ رأيت أُهبــة مزمــعٍ	**هجران موطنــه تُــشدُّ رحالُــه**
هل ينفع العَلَمَ المنيفَ، حُماتُــه	**نـاؤون عنه مُــشتّتون، وآلــه**
إن اللّــواء إذا عــلاك فإنّمــا	**يحميه ظلّكَ لا تقيــكَ ظلالــه**[(١)]

ويبكي الشاعر على دياره التي أصيبت بالدمار، بعد أن كانت عامرة جميلة، وبعد أن كان العزّ يدرج في ربوعها، ويحلّق في سمائها، هذا العزّ الذي بناه العرب بالنضال والكفاح والمثابرة، لكنّه اليوم يتهاوى، وتتهدّ أركانه، وتضعف نفوس حُماته، الذين سيتحوّل مجدهم إلى حُلم، كان، وزال.

إن الناس يحافظون على المجد، ويعملون دائبين لرفعه دائماً إلى الأعلى والأفضل. لكن أمته، تعاورتها الأيام والويلات، والنفوس الضعيفة والخبيثة، وتركت كل شيء ينهار أمام الاقتحام الاستعماري الحديث. وها هم أعداء العرب، أو الغزاة لوطن العرب، يبذلون كل ما يستطيعون من أجل بناء حضارتهم ودولتهم، ويعملون على هدم حضارة العرب التي اقتبسوا منها حضارتهم وشمسهم:

ضاعت بلادي، يا زمان الصَّغارْ!

والاندثارْ!

---

(١) الزركلي، الديوان ص٢٢٨.

الناس يبنون، وما في الدّيارْ،

غير الدمارْ!

أما ترى الغرب تعلّى وطارْ

فوق البحارْ

وأمّتي هاويةٌ، في انحدارْ!

بئس القرارْ![1]

وشعور الألم الذي يعانيه الشاعر، هو شعور مشترك مع أبناء الوطن. فهو يرصد لنا صورة الفتاة العربية المسلمة البائسة من وضع العرب، والقلقة على المستقبل العربي.

ولذلك فهي تندب أيام الحضارة العربية والفتوحات العربية، وأيام المجد والفخار التي سطّرها أبناء العرب في العصور الماضية، لكن الدهر أنشب أظفاره وكشرَّ عن أنيابه، وفتك بالقوّة العربية والتوحّد العربي، فحلّت التفرقة، وسادت الفوضى، وعمّ الاضطراب والذل،وراح الشاعر من جديد يبكي عصر رجالات الدولة العربية، الذين قادوا الأمة من فخر إلى فخر ومن نصر إلى نصر، ومن تضحية وصمود إلى مجدٍ وحضارة:

يا فتاة الإسلام حسبك شجواً	**ونُواحاً. وأنت بالشّجو أحرى**
إنما تندبين عزّاً تولّى	**وبناءً من العُلى مُشْمَخرّا**
عَبَثَ الدهر في ذويك فحلَّت	**بهم الموبقات دُهْمَاً وغُبْرا**
أين عهد «الفاروق»و«ابن أبي سفيان»	**غال الشيخينِ ما غال «عَمْرَا»**[2]

---

(١) نفسه ص٣٥.

(٢) نفسه ص٢٢٠.

والشاعر لا يقف من الأحداث موقف الواصف المُعاني فقط، بل يتعدّى ذلك إلى موقف المُنافح المُلْهب للشعوب الوطني والثورة على المستعمر والتدخّل الأجنبي في شؤون وطنه، فيطلب من أبناء أمته أن يشدّوا عزائمهم ويوحّدوا صفوفهم، ويقدموا التضحيات في سبيل كرامة الأمة وتحقيق أمانيها، لأن المستعمر قد استباح البلاد وأذل النفوس، فهل ينتظر الشعب العربي هواناً فوق كل هذا الهوان الذي أصابه؟ وهل يشيد الإذعان والخوف والضعف مجداً؟ أو يبني حضارة؟ أو يرفع مكانة لإنسان؟

يا راقدين على الهوان تـأهّبوا	**وتجلببـــوا الأدراع والأكفانـــا**
هذي بلادكـم تُبـاح، ودوركـم	**تجتاح، فابغوا غيرها أوطانـا!**
من خال أن المجد يُدرك هيّنـاً	**فلينتظر بعـد الهـوان هوانـا**
ما شاد ملكـاً أو أعـزَّ قبيلـة	**من آثر الإخـلاد والإذعانـا**[(١)]

كما تناول الشاعر أمراض الزعماء العرب، وأخذ عليهم شقاقهم وتفرقهم، وبرم بهذه الحال، فقال:

ولم أرَ قبل العرب في النـاس	**سواء عليها خُسْرُها ورباحهـا**
تُرجّي فلاحاً والشقاق حليفهـا	**وكيف يُرجّى في الشقاق فَلاحها**
وما برزت في عـالم الله أمّـة	**ولا كان إلا بالوفـاق نجاحُهـا**
أتصحو، ومن خمـر النُّكـوب	**ومـن سـكرات النائبـات**

«ولعل هذه الصيحة أيقظت كثيرين، ونبهت راقدين، وأفهمت الشعب العربي أن الداء مبعثه هؤلاء الحكام الين كانوا يتقاسمون الحكم، ويتنافسون من أجله، لا يعبئون بما يعدّ الأجنبي وما يفعل، فهو على الحدود، وله عين

---

(١) نفسه ص٢٤.

(٢) نفسه ص١٥٤.

في كل قصر من قصور الحكم والإمارة، تكاد تسير الأمور بمشيئة الغرب وهواه لا بمشيئة الشعب وأمانيه»[1].

ولعل ما يدمي قلب الشاعر، ويجعله يطلق زفراته وآهاته هو الانقسام العربي، والانشقاق في الصفوف، الذي يتبعه موت للأماني والأهداف، وتحقيق لمطامح المستعمرين.

والشاعر إذ يتحدث عن ذلك، فهو إنما ينبئ بشرّ العواقب، وسوء ما آلت إليه حالة العرب من الضعف وتباعد القلوب، وكثرة الخصومات والمشاحنات التي تعطي نتيجة إيجابية لأعداء الأمة:

وما شكواي أو شكواك إلا	**لفوضى في المجامع وانقسام**
ترى كُلاً له أمل وسعي	**وما لاثنين حولك من وئام**
وأحزاباً إذا التأمت فليست	**تدور بها الأمور على التئام**
وتجتمع الجسوم على تراضٍ	**فتفترق القلوب على خصام**[2]

إذاً: فالجميع ينشدون الأماني والآمال، لكنهم بعيدون عن الألفة والمحبة، وهم إن اجتمعوا بأجسامهم، فإن قلوبهم متنافرة وغير صافية وخالصة الود. فأصبح الوطن في عيني الشاعر أشبه بالسجن أو القبر، وأدرك أن حالة القوم تشبه حالة الموتى، فلا حياة ولا عزّة، ولا لقاء.

ويحتل الألم الفلسطيني مساحة واسعة من قلب الشاعر، فيوم «اقترح برنادوت إنشاء دولتين متحدتين على أساس شرقي الأردن و«دولة إسرائيل» مصوراً ذلك بصورة تحالف بين الدولتين» وكان ذلك عام ١٩٤٨، نهض الشاعر مدافعاً وموضحاً الحق الفلسطيني في فلسطين، ومهاجماً هذا

---

(١) الدهان، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٧.

(٢) الزركلي، الديوان ص ٣٢٦.

المشروع، بأنه سلبٌ للحق العربي، وانتقاص لكرامة شعب بنى دولته، ودافع عنها بكل ما يملك، وإن من الظلم والوحشية أن يُهجّر الشعب الفلسطيني من أرضه، ويُشرّد في شتى الأصقاع ويمضغ مرارة الظلم والتشرد طوال مراحل حياته، ومراحل بقاء الاحتلال الإسرائيلي لأرضه:

أتـــسلبُ أُمـــةً وطنـــاً عزيـــزاً   بنته على الجمـــاجم لا الرُّغـــام

وتقـــذفها تهـــيم بكـــلّ وادٍ   تُطوِّف في السباسب والمرامـــي

تنام وتـــستفيق علـــى جـــراحٍ   نواغِلَ في أضـــالعها دوامـــي[1]

ويبيّن الشاعر موقفه من الاعتداء والحروب، فالحرب عنده ليست لغير الدمار والخراب والويلات والكوارث:

هي الحرب كانت للدمار ولم تـــزل   مثار خطوب تبعث الضنّك والعُـــدما[2]

والحروب ليست إلا من صنع الناس الأشرار الذين يرغبون في إفناء البشرية والاعتداء على حرماتها. وفي الوقت ذاته يقابل الشاعر هذا المفهوم، بمفهوم السلام، الذي يعني الخلود إلى الأمن والطمأنينة. ويرى أن الذين تحدّثوا في السلام، ونادوا به، إنما أرادوا بذلك بناءً إنسانياً حضارياً، شامخاً، أو لعله يقصد مبنى مجلس الأمن الدولي:

سلامٌ على قـــصر الـــسلام وآلـــه   سلام على من شيّدوا ذلك الفخمـــا

رجالٌ بنوه يبتغـــون بـــه الهـــدى   وأعظم به ناساً وأكرم بهم قوماً[3]

ويعيش الشاعر آلام أهله ووطنه في الشام، يوم اشتعلت الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥، حيث بدأت في جبل العرب، ثم تعددت ميادينها حتى كادت

---

(١) نفسه ص٢٨٣.

(٢) نفسه ص١٧٨.

(٣) نفسه ص١٧٨.

تشمل القطر بكامله. ونتيجة لاشتداد لهيب المعركة ومهاجمة الثوار مكان المندوب السامي الفرنسي في قصر العظم، أمر هذا المندوب ضرب دمشق بالمدافع والطائرات، فنشبت فيها الحرائق، وتهدمت الدور والقصور، ولم يوقف الفرنسيون قصف المدينة إلا بعد أن فرضوا على أهلها غرامة كبيرة، إلا أن الثوار تابعوا معاركهم بمختلف المناطق، وقدّموا الضحايا بغير حساب في سبيل الذّود عن حياض الوطن وتوفير الحياة الحرّة الكريمة فيه:

الأهـل أهلـي والـديار ديـاري　　وشعار وادي النّيربين شـعاري[١]

ما كان مـن ألـم بجلّـق نـازلٍ　　واري الزنـاد فَزَنْـدهُ بـي واري

إنَّ الدَّمَ المهـراق فـي جنباتهـا　　لـدمي وإنّ شـفارها لـشفاري

دمعي لما مُنيت بـه جـارٍ هُنـا　　ودمي هُناك على ثراها جـاري[٢]

ويرسم الشاعر صورة النيران التي أحدقت بدمشق، وانسابت في الأحياء، فأصابت الطفل والشيخ والفتاة، وغدا الناس يترقّبون الموت في الغدّو والآصال. والثوّار السوريون يقومون بالدفاع، والقتال، حتى أعاد الزركلي إلى الذاكرة يوم ذي قار، وربط بطولات الماضي بالحاضر:

إن أَنصفت أيام «ذي قـار»، لنـا　　سلفاً، فنحن اليوم في «ذي قـار»

طارت بألباب الفرنجـة صـيحة　　في الشام، فاندفعوا إلـى الأسـوار

وعدوا على الأطفال في حُجراتها　　والمطفلات، وهـنّ فـي الأخـدار

عمّوا بمضطرب القذائف كـلّ ذي　　ضـعف، وخـصّوا كـلّ ذات إزار

ستروا بضرب الآمنـين فـرارهم　　فاعجـب لعـارٍ سـتّروه بعـار[٣]

---

(١) وادي النيربين: موضع فيه بساتين ورياض، كان مدخل دمشق للقادم من غربيها.

(٢)الزركلي، الديوان ص٢١٠.

(٣) نفسه ص٢١٢.

ويقول الدكتور سامي الدهان[1]:

الكارثة حلّت بالشام، ودخل الفرنسيون أرضها سنة ١٩٢٠ غدراً وغيلة، وأعملوا في بقية الجيش العربي بها قتلاً وفتكاً، وسقط وزير الحربية العربي، فصوّر خير الدين الزركلي هذه الفاجعة وسقوط «ميسلون» بشعر رائع، لا نكاد نجد له مثيلاً في شعر الشام، بل يكاد ينفرد بروعته وبيانه لوصفه تلك الساعات الحرجة من حياة أمة صغيرة، مدّت يدها إلى الحلفاء صادقة، فأعطوها المواثيق باليمين، ورموها بالنار بالشمال، ففضّلت الموت على الحياة، وسقط أبناؤها في المعركة ليسقوا الأرض من نجيعهم الطاهر، وليُشهدوا العالم أجمع على غَدْر الحلفاء، وليمكّنوا قومهم من المطالبة بحق الوطن، فقد استبيح حِماهُ حرباً، ولم يستسلم، وكانت دماؤهم وأشلاؤهم الوثيقة الفذّة التي أنقذت الوطن من براثن الانتداب فيما بعد.

قال الشاعر يصف المعركة الحربية غير المتكافئة وصفاً بليغاً أرسله من قرارة نفسه دمعاً وأسى وحرقة، وتدفّق به على الغادرين حقداً ونيراناً:

الله للحـــــدثان كيــــف تكيــــد ... بردى يفيض «وقاســيون» يميــد

ثم قال:

لهفي على وطن يجــوس خلالـــه ... شُـــذّاذُ آفـــاقٍ شـــراذم ســـود

أَبرابـــرُ الــسِّنغال تــسلب أمتـــي ... وطني، ولا يتــصدّع الجلمــود...؟

شـــرّ البليّـــة والبلايـــا جمّـــة ... أن تستبيح حمى الكـــرام عبيـــد[2]

وقد تصوّر الشاعر عظم الكارثة، فجعل بردى يفيض ماؤه، وجبل «قاسيون» يميد لهولها. فالوطن العربي يجوس أرضه شراذم سود من

---

(١) الدهان، سامي، مرجع سبق ذكره ص١٥٤.

(٢) الزركلي، الديوان ص١١٦.

السنغال، يسلبون العزّة، ويختلسون الاستقلال، وهذه شرّ بليّة يُصاب بها وطن، حين يهبّ المستعبدون لنصرة المستعمرين في سلب وطن آخر...

ثم وصف المعركة نفسها فبلغ الذروة في تصويرها حين قال:

غلت المراجل فاستشاطت أمّة عربية غضباً وثار رقود

زحفت تذود عن الديار وما لها من قوّة فعجبت كيف تذود

الطائرات محوّمات حولها والزاحفات صراعهنّ شديد

ولقد شهدتُ جموعها وثّابة لو كان يُدفع بالصدور حديدُ[(١)]

واستطاع الشاعر أن يستحضر صور الزاحفات والطائرات وهي جديدة في شعرنا. جديدة في حياتنا، ورسم المعركة كأنه يراها، ورسم لوحة لها ما تزال أصدق لوحة في وصف معركة ميسلون، في الشعر السوري المعاصر، على الرغم من قصورها عن بلوغ التفاصيل، ووقوفها عند حدّ الألفاظ والمسميّات، ولكنها على كل حال وحدها في هذا الميدان الأدبي، لم تقع على مثلها لغيره من الشعراء.

وتابع الشاعر في وصف الجُناة، وَوَقْعِ نكبتهم على أهل الشام، فقد سقطوا على البلاد كما يسقط البوم والجراد، وعمد إلى مناجاة الحمام وهو في الغمّ والأسى... وأبلغ التحية وهو عن دمشق بعيد، منفي يعيش في مصر، ويتحسّر على وطنه وبيوت أهله، ويتمنّى أن يعود إليها وهي في أجمل عيش وأنضر سعادة، ولكنه هجرها بعيداً عن الهوان، فقال:

نذروا دمي حنقاً عليّ وفاتُهم أنَّ الشقي بما لقيتُ سعيد

الله شاء لي الحياة وحاولوا ما لم يشأ ولحكمه التأييد[(٢)]

---

(١) نفسه ص١١٧.

(٢) نفسه ص١١٨.

وفي هذا إشارة إلى حكم الفرنسيين عليه بالإعدام غيابياً، ولكنه سخر منهم، فعاش معزّزاً مكّرماً، وهم نزحوا عن بلاده يجللهم العار، ويزدريهم الشعراء، ويسخر منهم التاريخ. وناجى الحمامة ثانية، فحملها أساه وشكى إليها بلواه، ونَذر دمه لأهله ووطنه في قصيدة سائرة كذلك:

عـــصفورة «النيـــربين» غنّـــي   واروي حـــديث الأنـــين عنـــي

أنـــا المُغنّـــى ومـــا المغنّـــي   غيـــــر حنـــينٍ أذاب منّـــــي

شغاف قلبي وحسن ظنّي(١)

والأبيات موسيقية اللفظ، بحترية التركيب، تكاد تغنى، سار بها الشاعر على سجع الحمام، فلقّن طيور بلاده أغاني قلبه، وأناشيد روحه القلقة المعذبة في سبيل أمته ووطنه، فهو في الشعراء الرومانتيكيين.

ولكن الشاعر يظلّ مفعماً بالأمل الكبير، متوسّماً في شعبه ووطنه كل آيات الثورة والنضال، حتى يتحقق النصر والاستقلال:

إنّ فـــي الـــشام أمّـــة لا تُطيـــق   الضيم، تأبى لها العُـــلا أن تُطيقـــا

أنذرونا بالموت، ما أعذب الموت   إذا كـــان للحيـــاة طريقـــــا(٢)

ويحثّ أحياناً على سلوك طريق الموت، عندما تتزاحم الخطوب، لأنه الطريق الوحيدة التي توصل إمّا إلى الحياة الحرّة الكريمة، وإمّا إلى الهلاك الذي هو أفضل من البقاء والعيش تحت وطأة الذل والظلم، فالإنسان الحرّ المناضل لا يقبل المهانة والخنوع، وإذا ارتضى بذلك إنسان، فإنما هو ضعيف خامل:

خطوب الدهر أيـــسرها المنـــونُ   وحبّ العـــيش فـــي نَكَـــدٍ جُنـــونُ

وصبر الحـــرّ والأحـــداث تحبـــو   إليه صـــروفها عجـــزٌ وُهـــون(٣)

---

(١) نفسه ص٩٣.

(٢) نفسه ص١٧٣.

(٣) نفسه ص١١٤.

الدعوة للثورة
والتبشير بالمستقبل العربي

للعرب في تاريخهم القديم ثلاث نهضات بارزة. الأولى دينية مهدها الحجاز، وقد بلغت أوجها بظهور الإسلام وانتشاره، في قسم كبير من المعمورة. والثانية قومية، وليس بالهيّن فصلها عن الأولى، على أنها تبرز بشكل خاص في العهد الأموي ففيه كانت للعرب سلطنة عظيمة الشأن تمتد من حدود الهند إلى الأندلس. وكان العرب فيها أهل الإدارة والسلطان، بسيوفهم تُحاط الدولة، وإلى خزائنهم تجبى الأموال.

وأما النهضة الثالثة فعلمية لغوية، وقد بدأت بالنّمو منذ ظهور الإسلام وما زالت حتى بلغت عصرها الذهبي في بغداد وبعض الحواضر الأخرى. ويُراد بها ما قامت به اللغة العربية يومئذ من نقل العلوم القديمة والتوسع فيها وما عُرف من ازدهار معارفها وآدابها.

ومن المعلوم أن العرب فقدوا بعد الأمويين مقامهم السياسي الممتاز في الشرق، وأخذوا بعد العصر العباسي الأول بالتراجع أمام سائر العناصر، ولم يلبثوا في الشرق عقب انحلال الخلافتين العباسية والفاطمية، أن دخلوا في حكم الدول الأعجمية. وآخر هذه الدول السلطنة العثمانية التي يمتد حكمها عليهم من سنة ١٥١٦م إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨.

ولا نرى قبل القرن التاسع عشر ما يشير إلى يقظة قومية للعرب، فقد كانت قوميتهم في سبات عميق. وأول من حاول إيقاظها هو محمد علي الكبير

أو قُلْ ابنه إبراهيم باشا، وكان على ما يبدو ينوي إنشاء دولة عربية مركزها القاهرة، لكن مشروعه لم يتم. ولا يظهر أن البلدان العربية التي نؤرخ أدبها الحديث (مصر وسورية والعراق) تأثرت يومئذ تأثراً جديّاً بهذا المشروع، أوْسَعَت لتحقيقه على أن البذرة وضعت في الأرض، وترك للزمان إنباتها.

بقي الحال كذلك إلى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وكانت مصر قد استقلّت بشؤونها الداخلية عن الدولة العثمانية والنهضة العلمية قد بدأت في سورية ولبنان بتنشيط بعض أعلام الحكام كراشد باشا ومدحت باشا وأضرابهما، فتهيأ من كل ذلك بواعث لحركة أدبية تعبّر عن أحلام العرب وخوالجهم القومية[١].

وكان شاعرنا خير الدين الزركلي، واحداً من الشعراء الذين قدّموا مجموعة من القصائد التي كان لها الأثر الكبير في تحضير الأفكار، وإذكاء الروح القومية.

ويتعجب من قبول أبناء العرب الذل والمهانة، ويتساءل عمّا إذا كان هذا المورد قد عَذُبَ لهم؟ أم أنه كان حلو المذاق نتيجة ما ذاقته النفوس من هوان على مرّ الأيّام؟

ويمتدح الشاعر أبناء قومه، ويذكر لهم بعض صفاتهم كحماية الجار والمحافظة على العهود، والإباء والرجولة، ويطلب منهم أن يكسروا أطواق الذل، ويشحذوا هممهم التي لم تشحذ منذ زمن طويل، وأن يبتعدوا كثيراً عن القول دون الفعل:

سائلِ الأقــوامَ حينــاً بعــد حــين مالرهطٍ هاج رهــط المــصلحينْ

سَــلْهُم هــل عَــذُبَ الــذّلّ لهــم أم حــلا عنــدهم مــرّ الــسّنين

---

(١) أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي ص١٠٢.

يا حماة الجـــار أحـــلاف الهُـــدى يا رجال العـــرب آســـاد العـــرين

نبهوا العـــزم فقـــد طـــال الـــونى ليس يجدي اليوم قول القـــائلين[(١)]

ويحث الشاعر أبناء قومه في الشام على النهوض، بعد أن دخلها الفرنسيون، فشاهد ألسنة الثورة قد هدأت والمُقَلُ قد غَفَتْ، فأراد أن يدفعهم إلى الثورة، معلّلاً لهم عدم غسل العار بغير السيّف، ويطلب منهم أن يشمّروا عن ساعد الجدّ والعمل والكفاح، وأن يبتعدوا عن الخطابات اللسانية دون تحقيق هدف أو أمل، وأن ينزلوا إلى ساحة القتال لأنها الوحيدة التي يبرهن الإنسان فيها على صلاحيته للحياة الكريمة.

انهـــــــضوا يـــــــا نيـــــــام يـــــــا رجـــــــال الـــــــشآمْ

لـــــــيس إلا الحُـــــــسَامْ جاليـــــــــاً للعـــــــــار

شمّروا الذّراعْ، واكسروا اليـــراعْ حومة القِـــراعْ، قبلـــة الكُـــرْارْ[(٢)]

وكان الناس، في سورية، يتلقفون هذه القصائد سراً، وسرعان ما يستظهرها الشباب والشيوخ، ويرددونها في مجتمعاتهم الخاصة كنفثة من نفثات شاعرٍ حُرٍّ، نزح عن وطنه في أقسى الظروف، وحُكم عليه بالإعدام بعد أن احتلّ الإفرنسي بلاده، وكانت نفثاته الحرى تعبيراً صادقاً عن شعورهم الوطني المكبوت[(٣)].

ولذلك كان يتصوّر أن بلاده قد انتشر فيها الظلم والفقر والشقاء، وأن النفوس قد استوطنت على هذه الأمور وقبلت بها، حيث كان هذا بعد وقعة ميسلون.

وهو يرى أن هذا الضعف والهوان هو الذي سيسبب لهم العذاب والحزن والألم، وهو الذي سيجعل النفوس قابلة بأذى الحقوق، ومتعلقة بأوهى

---

(١)الزركلي، الديوان ص١٠٣.

(٢) نفسه ص١١٥.

(٣) الكيالي، مرجع سبق ذكره ص٢٥٩.

الآمال، على حين أن الحقّ يحتاج إلى العزائم الماضية، والزنود القوية، لأن الحقّ هو المنتصر دائماً:

بَلَـــدٌ تبـــوّأه الـــشقّاء فكلّمـــا — قَـــدُم اســـتقام لـــه بـــه تجديـــدُ

لانت عريكة قاطنيـــه ومـــا دروا — أن الـــضعيف مُعَـــذَّبٌ منكـــود

لمسوا حبـــال حُقـــوقهم وتعلّقـــوا — في الحـــقّ يُعـــوزُهُ قَنَـــاً وبُنـــود

ما تنفع الحُجَج الـضعيف وإنّمـــا — حـــقّ القـــويّ مُعـــزَّزٌ معـــضودُ[١]

ويقرّع الشاعر بالوعود الكاذبة الخادعة التي أضلّت العرب وأساءت إلى الشام، وهدّد بالسيوف العربية، وعاج إلى الحماسة، يُذكي بها الأفئدة والقلوب، ويدعو إلى الحرب والقتال، إذ لا ناطق حقّ عنده سوى السّيف، كما يدعو قومه إلى عدم الاستسلام، وعدم نسيان الحق بعد أن أصابهم الخير والنعيم، ولا أظنه يقصد في هذه النقطة سوى الحكام الذين وصلوا إلى السلطة:

يا نابضاً فيه عرقٌ من بني مُضَرٍ — أسرج جيادك ولْتُطْلَق لهـــا اللُّجَـــمُ

واشحذ غِرارك لا يعلق بها صـــدأ — فإن يَجُرْ حَكَـــمٌ فالـــصارم الحكـــم

كفكف دموع فلـــسطين وجارتهـــا — بيروت، واكْفُفْ يداً فـــي بـــسطها

بني أبي يا وقـــاكم كـــل عاديـــة — مَنْ بَيْتُه الكعبةُ الحَمْسَاءُ والحَـــرَمُ

تـــأهّبوا لقـــراع الطـــامعين بكـــم — ولا تغـــــرّكم الآلاء والـــــنّعم[٢]

فهو يطلب إلى العرب أن يشحذوا السّيوف، وأن يسرجوا الخيول، وأن يتأهّبوا لقراع الطامعين الغادرين. وفي هذا الشعر صورة للشعر الحماسي القديم في معانيه وفي مبانيه، يتَّخذ السيوف والخيول واسطة للقتال، ويستعمل الصور

---

(١) الزركلي، الديوان ص١١٦.

(٢) نفسه ص١٢٦.

الشعرية في استنفار القبائل، وفي إثارة الحميّة والنخوة. فهو يفكّر ويدعو ويهب على صيحات الشعر العربي القديم، لا يجد له غيره ركوباً ولا طريقاً[١].

ودعوة الشاعر إلى الثورة والتأهّب، موجهة إلى أبناء يعرب جميعاً، فهو يحثّهم لذلك، من أجل طرد الأجنبي المحتل من بلادهم، حيث لا مكان له بينهم، وفوق أرضهم. فالأرض العربية كلها، الشام والعراق والحجاز واليمن وأرض الخليج والمغرب العربي كلّها أرضه وبلاده ووطنه، وعليه أن يدافع عنها، ويضحّي من أجلها، ويحميها، لأنها يجب أن تكون حرّة عزيزة كريمة:

يـــــا بْـــــنَ يَعْــــرُبِ ... قُـــــــــمْ تأهَّــــــــــبِ

مـــــــــا لأجنبـــــــــي ... فـــــي الحمــــى مَقَـــرُّ

* * *

الــــــشام والعـــــــراق والحجـــــاز لـــــــكْ

والـــــيمن المُـــــضَحّي إذا اشـــــتدَّ الحَلَـــكْ

ونجــــدُكَ الماضــــــي الـــــشَّبا ومـــــا ملَـــكْ

كُـــــلٌّ مُهِيـــــبٌ بـــــك أنْ رِدْ مَنْهَلَـــــك[٢]

ويطلب الشاعر من أبناء قومه، أن يسيروا إلى بناء مجدهم بكل همّة وإخلاص، ناذرين النفوس لذلك كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، فلا بناء من دون جَهْدٍ ولا حياة من غير تضحية، ولا نيران من غير أشواق ملتهبة وجَمْرٍ مُضْرَم:

سيروا إلى مجدكم روحاً وأبــدانا ... واسعوا إلى عزّكم شــيباً وشــبّانا

تُشيّدوا ذكركم، تبنوا لكــم شــانا ... شأناً تلوح به كواكــب الــسَّعدِ[٣]

---

(١) الدهان، سامي الشعراء الأعلام في سورية ص١٥٤.

(٢) الزركلي، الديوان ص٢٠٨.

(٣) نفسه ص٣١٦

ويرجو الشاعر لكل بلاده العربية، أن تتحرّر من نير الاحتلال الأجنبي، ويحثّ أبناء قومه على التلاحم والتوحّد من أجل طرد الدخلاء وتحقيق الحرية والاستقلال، ويبيّن لهم أن طلب الحياة ليس أمراً سهلاً، بل هو طريق وعرة تحتاج إلى جلاد وصبر وتضحية وإقدام:

أنقذوا مصر بالقواضب والشُّرَّع ــ والواريـــــات يلفظـــــن جمــــرا

وادفعوا الشر عن مناكب بغـداد ــ فـــإن العـــراق أوجـــس شـــرّا

طهّروا الأرض من رمام العــوادي واجعلـــوا الـــيّم للعُـــداةِ مقـــرّا

ما منال الحياة بالمطلب السّهل ــ ونهج الحياة ما زال وعــرا... [1]

وبالرّغم من كل ما يعانيه الوطن من اختناقات، وما يلاحظه الشاعر من ركود وموات وقبول بالوضع القائم في البلاد، لكنه متفائل بأجيال وطنه، فهو يتوسّم فيهم الخير والهمّة والثورة، وسيرى العالم عمّا قريب من هم أبناء هذا الوطن عندما يثورون؟ وكيف سيبدّدون كل ما يحيط بهم من حُجُب وغيوم؟

فهم أهل النخوة والحميّة، الأباة الكرام، الذين يتسابقون إلى الأمجاد، وعندئذ، يبرهنون على أصالتهم وعروبتهم، ويكبر الأمل في قلب الشاعر عندما يسعون إلى المجد، مرخصين النفوس، فهم الذين يطلبون العلياء منذ صغرهم، ويسعون إلى تحقيق الأمجاد والمكرمات والآمال، عندما تكبر أحلام الوطن في نفوسهم، وتشتّد سواعده:

وقُلْ لمن زعموا في العُرْب مـــا وما يقيمون عند القول بُرهانـــا

سيعلم الناس مَنْ آل الشّآم ومَنْ أبناء مصر، ومَنْ قُطّانُ بغـدانا

---

(١) نفسه ص٢٢١.

سينجلي الغيهب المُقَتَّم عن زُمَرٍ   يرون في ربح أهـل الحـرص

بيض الوجوه لهم في كل مكرمة   يَدٌ قد انبسطت ســرّاً وإعلانـا

أولئك القوم آلي، أبتغـي بهـم   سعياً إلى المجد، أرواحاً وأبدانا

أنعم بأشبال قحطان الأُلى نهضوا   إلى العلاء زرافـاتٍ ووحُـدانا

حنّوا إلى المجد ولداناً فما لبثوا   أنْ يمّموا سُبُلَ العلياء فتيانـا[1]

ويفتخر الشاعر بأبطال شعبه يوم قيام الثورة السورية الكبرى ضد الاحتلال الفرنسي، هؤلاء الفرنسان الذين ثاروا على المغتصب غير مكترثين بما يلاقونه من ظلم وضرب وسجن ونفي، إنهم يتسارعون إلى خنادق الثورة، ويلهبون أوارها في المناطق كلها رافضين الذل والخنوع وانحناء الرقاب، راغبين في حصد غصّات القلوب والنفوس:

انظر إلى القوم لا حَوْلٌ ولا عَـضُدٌ   ثاروا على البغي مـا هـابوا ولا

أُباة ضـيمٍ، مقـاديم إذا اسـتعرت   لظى نـضالٍ، مناجيـد، مـساريع

سيموا الأذاة، فلم يحنـوا رقـابهم   ذُلاً، ولا استـسلموا والأنـف

ويوم كان الجنرال «غورو» عائداً من زيارة للفاعور بقرب مدينة القنيطرة، في سورية، ومعه حقي العظم (حاكم دمشق) وتصدّى لهما بعض الوطنيين فأطلقوا عليهما الرصاص، وأصيب الجنرال في يده الخشبية، ودخلت رصاصة في عنق حقي فجرحته، وقتل مرافق عسكري كان مع الجنرال، وأشيع في عمّان أن الجنرال قتل، أنشد شاعرنا، فقال:

يـومٌ «الغـورو» فـي قنيطـرة   كـان العقـاب بـه لمـا اجترمـا

---

(١) نفسه ص٢٦.

(٢) نفسه ص١٢٨.

نهـــضت بأبنـــاء الحمـــى هِمـــمٌ فتــــدرعوا الإقــــدام والهممـــــا

ما بـــال «حقـــي» غيـــر معتبـــر بمـــصير صـــاحبه الـــذي ظَلَمـــا

ســــــيرون أيّامـــــــاً محجّلــــــة بيـــضاً لنـــا بخلـــوا بهـــا الظُّلمـــا

إنّ النفــــوس إذا غَلَـــــى دَمُهـــا ألمـــاً شـــفت بزنادهـــا الألمـــا(١)

ويصورّ الشاعر، أن النضال العربي قائم في البلاد كلها من أجل الحرية والاستقلال، وهيهات أن يقبل شعبه الذل والظلم، ويخنع للضيم:

في فلسطين وفي الشام رجالْ ــ ونصالْ

وبنجدٍ وببغداد ليوثْ ــ وغيوثْ

وبصنعاء وهاتيك الهضابْ ــ أُسْدُ غاب

والمقام، لا يُضامْ(٢)

ويبيّن الشاعر إقدام المقاتل العربي يوم تكون المعركة ضارية، وعندما يحشد العدو جيوشه ليطبق بأفق البلاد، إنه المقاتل الفارس الذي لا يبالي بلقاء الحروب وأبطالها، بل يغير ممشقاً سلاحه ودمه، طالباً الموت لتوهب له الحياة، وليكتب له المجد والخلود، ولبلاده الحرية والانتصار:

لــــسنا بنـــــالي عــــدد العُـــداة ولا لقـــــاء القــــادة الكُمـــــاة

نغيــــــر بالـــــشُّرّع والظبـــــاة ونُـــؤثر المـــوت علـــى الحيـــاة

دمُ الطُّلـــى إلى العُلـــى ســـبيل(٣)

هكذا كان الشاعر مفجراً طاقات ألمه، حاثاً أبناء قومه على الثورة في وجه المستعمر، مفتخراً ببطولاتهم يوم يثورون لتحقيق الأماني والأهداف.

---

(١) نفسه ص١٢٤.

(٢) نفسه ص ١٤٨.

(٣) نفسه ص١٣٣.

الشاعر ومفترق الموت العربي
والنهوض الجديد

تفتحت حياة شاعرنا الكبير، خير الدين الزركلي، في ظروف قاسية، كانت تحيط بأمته ووطنه، فوعى وأدرك المظالم والمجازر النازلة ببني قومه، فشمّر عن ساعديه، واستعد لمقاومتها، ودعا إلى الكفاح ومقارعة الاستعمار.

«كان خير الدين الزركلي رائداً من روّاد النضال الأوائل، وقد عمل لأجل استقلال العرب من نير السيطرة العثمانية، يوم كانت الجمعيات العربية تعمل سرّاً، وكان أحرار العرب داخل البلاد وخارجها، يتنادون ويجتمعون، والشعب الذي طال رقاده يتململ ويستيقظ. كان ينتظر الثورة، هذه التي انطلقت شرارتها من الحجاز، فكنست العثمانيين من الديار العربية، وانفتحت المجالات للآمال العراض، لكن الوطن العربي الذي وثق بالحلفاء، سرعان ما غدر به الحلفاء، وكانت معاهدة سايكس بيكو خنجراً في الظهر، وصار على العرب أن يقاوموا المحتل فكانت معارك ميسلون، واختال الدخيل في شوارع دمشق على أشلاء الضحايا، ونهض الزركلي يهتف بالعرب»[(١)]:

فيم الونى وديار العــرب تُقتســم ... أين العهود التي لم تــرع والــذِّمم

هل صحّ ما قيل من عهدٍ ومن عدةٍ ... وقد رأيت حقوق العــرب تهتــضم

---

(١) صحيفة الثورة ــ العدد (٤٢٤٠) ــ مقالة للدكتورة نجاح العطار.

ما بال بغداد لم تنبس بها شفة　　　وما لبيروت لم يخفق بها علم

نَسْجُو على الضيم والأطماع حائمة　　　ونكظم الغيظ والأكباد تضطرم[(١)]

لقد كان الشاعر مناضلاً طليعياً تقدميّاً، فهو لا ينسى في آخر القصيدة أن يوجه خطابه إلى أبناء يعرب شاحذاً هممهم، لتنظيم أمرهم، وتوحيد كلمتهم، لقراع أعدائهم:

تأهّبوا لقراع الطامعين بكم　　　ولا تغرّكم الآلاء والنِّعم

سيروا رويداً إلى تنظيم أمركم　　　لا يصلح الأمر إلا حين ينتظم

وأقسموا لا افترقتم يوم ملحمة　　　ولا ونيتم عساه يصدق القسم[(٢)]

«ولعلّ هذه الدعوة إلى اجتماع الشمل واتحاد الكلمة، كانت أوّل صرخة من نوعها، ولاسيّما إذا عرفنا أن القصيدة مؤرّخة ــ كما جاء في الديوان ــ عام ١٩١٩»[(٣)].

وكان الشاعر مقرّعاً لسياسة الفرنسيين يوم عمدوا إلى تجزئة البلاد وإقامة دويلات كثيرة فيها: دمشق ــ حلب ــ اللاذقية ــ جبل الدروز ــ إسكندرونة ــ لبنان.

كل **الزركلي، الديوان** ذلك في سبيل تحقيق هدفين أساسيين:

أولهما: تغذية النزعات الانفصالية أو الطائفية وإضعاف الروح القومية والوطنية.

وثانيهما: عزل سورية الداخلية عن البحر وخنقها اقتصادياً، لكن الشعب العربي في سورية، قاوم التجزئة بكل الوسائل الممكنة لديه، فاضطرت فرنسة إلى التراجع والإعلان عن قيام دولة اتحادية تضمّ دمشق وحلب واللاذقية

---

(١) الزركلي، الديوان ص١٢٥.

(٢) نفسه ص١٢٦.

(٣) مريدن ، عزيزة، حركات الشعر في العصر الحديث ــ ص١٨٥.

بصلاحيات صورية ومظاهر ديمقراطية كاذبة، إلا أن الشعب تابع مقاومته، وقاطع انتخابات المجالس التمثيلية، وتراجعت فرنسة مرة ثانية، وأعلنت عن قيام دولة أكثر انسجاماً (بحسب تعبيرها) مؤلفة من دمشق وحلب (دولة سورية) ولكنها أخفقت في تهدئة النفوس وخداع الشعب، فاندلعت الثورات:

أدولة في دمشق ذات أنظمة ... ودولة في قويق أمرها جلل

ودولة في رُبى لبنان قائمة ... بين الكهوف يقيها العادي الجبل

تلكم لعمري «روايات» مُمثَّلة ... في كل يوم يُرى منها لها

والشاعر ليس ناقماً وحاقداً وثائراً على المستعمرين الذين احتلوا بلاده فقط؟ بل هو ثائر أيضاً، وحاقد على رجال من وطنه، تعاملوا مع الاستعمار، وتعاونوا معه، فقد كان الشاعر يرى فيهم بُناة لهذا الوطن، وسنداً له، ومضمدين لجراحه، وقادة لثّواره! ولكن سرعان ما انقشعت الغيمة، وتكشفت نواياهم الخبيثة، فكشّروا عن أنيابهم، وسددوا سهام الدمار والهلاك والموت لوطنهم، ولأبناء أمتهم، وانقلبت صلاة الوطن التي كانوا يقيمونها إلى ردّة وإلحادٍ ونكران، وراحوا ينفّذون مآربهم الشخصية ويسرقون خيرات الشعب والوطن، ويبنون لأنفسهم كياناً هامشياً، بعيداً عن أهداف الأمة:

ويلي على وطن يُهدّمه ... من كُنْت آمُلُ أن يُشيِّده

كم صائح: وطني! حسبت به ... كشّاف غمّته، ومنجده

دارت به الأيام دورتها ... وارتعت حين رأيت مشهده!

أبصرته هدفاً له وطني ... والسَّهم بين يديه، سدّده

تخذ الولوع بحبّ موطنه ... شركاً له وبغى تصيّده[٢]

---

(١) الزركلي، الديوان ص١٣٧.

(٢) نفسه ص٣٣.

وعندما كانت أراضي الشعب العربي الفلسطيني تنتقل من الأيدي العربية إلى الأيدي اليهودية عن طريق التجّار والسماسرة والإقطاعيين وكبار الملاكين العرب، كان هذا الأمر يؤثر آثاراً سلبيّة في شعبنا الفلسطيني، ويفرض عليه الهجرة والتشرد والمضايقة، وبالتالي، كتابة مأساته المؤلمة، وقد صورّ الشاعر هؤلاء السماسرة والتجار، مُتّجردين من الشعور والإحساس الإنساني، حيث دفعتهم إلى ذلك أطماعهم الدنيئة، وارتباطاتهم الوثيقة مع أعدائهم الذين اشتروهم بالمال، ويتعجّب الشاعر من هؤلاء الناس الذين يقبلون بدل أوطانهم حفنة من المال، ستزول بعد حين، لكن الوطن سيبقى مقيماً في القلب والعين والروح، إذ هو كذلك:

تقــدّم خطــوة وانظــر فــإنّي ... أرى مــالا يــصورّه الــسَّماع

ضــمائر جُــرّد الإحــساس منهــا ... وما النّبــراس إن طُفــئ الــشّعاع

يُــسخّرها ويؤجرهــا ذووهــا ... فمــا هــي عنــدهم إلا متــاع

وأعجبُ ما تــرى سمــسار قــومٍ ... تــذوب بــه الدســاكر والــضِّياع

يبيــع بــلاده وســواه راضٍ ... يكرّمــه ويكبــره رَعَــاع

هي الأوطــان تُحمــى أو تُفــدّى ... ولــم أر قَبْــلُ أوطانــاً تبــاع[1]

إنه بهذه الرؤية، يبين لنا موقفه من القضية الفلسطينية، ومن الذين يراهنون على انتقالها من الأيدي العربية إلى الأيدي اليهودية. كما يبيّن مغبّة تقسيم فلسطين إلى مناطق دولية، فتح لها المحتلّون والأجراء أفواههم وبطونهم، ويدعو إلى ضرورة إنقاذ عروبة فلسطين، ومنع مجريات التقسيم والمزاودة:

مَـــــنْ لمـــــوطنٍ ... قـــــد تقــــسّما

---

(١) نفسه ص١٢٣.

كــــــــلّ آكـــــــــلٍ	**فــــــاغرٌ فَمَــــــا**
فـــــي يـــــد العــــــدا	**اعْتَــــــلَّ وارتمـــــــى**[1]

ويرتفع صوت الشاعر معرّضاً بموقف بريطانيا وأعمالها الإجرامية إزاء ما تقوم به في فلسطين. فهي التي تخطط وتدبّر وتنصب الحيل والمكائد من أجل مساعدة اليهود وطرد الشعب العربي الفلسطيني من أرضه.

فلجنة التحقيق التي جاءت إلى فلسطين، لم تأت لمصلحة العرب، وإنّما هي وَهْمٌ وتضليلٌ لتمرير صفقة جديدة، ومماطلة على الحقوق. وينبّه الشاعر إلى ضرورة أخذ الحذر من المشروعات والنوايا البريطانية، هذه الدولة التي تعمل عكس ما تقول، وتغدر بكل المبادئ والقيم الإنسانية، والعهود التي أخذت على عاتقها حفظها وصيانتها، حتى إذا أدرك العرب خُبْثَ هذه الصداقة والمودّة، استفاقوا على أجراس المصيبة وهي تنزل بهم من أعزّ صديق وثقوا به، وأمنوا له، فراحوا يبحثون عن بواعث النضال والثورة في أنفسهم، لدفع ما لحق بهم من ظلم وغدر وهوان:

ما «لجنة التحقيق» إلا خدعــةٌ	**إن لم يكفّ يــدَ الأذى تحقيقُهــا**
يا أمّةً وثقــت بعهــد حليفهــا	**فرمى بها بين النُّيوب وُثوقُهــا**
زَمَّتْ إليــه ركابهــا، فخيولُهــا	**بالأمس مالئةُ القفــار، ونوقُهــا**
وَمَشَتْ تشدّ ذراعــه بــذراعها	**ويشوقه خوض الوغى ويشوقُها**
ناطت به آمالها حتــى انتــشى	**ظفراً فصارحها العداء صــديقُها**
أمسى وأمست، همّها أن تتقــي	**طوق الهوان، وهمُّه تطويقها**[2]

---

(١) نفسه ص٧٤.

(٢) نفسه ص٢٣٦.

إننا لنستغرب كيف أقدم قادة العرب آنذاك، بالاعتماد على أعدائهم في تحقيق أمانيهم وأهدافهم؟ إن العدو، لا يؤتمن، بل يؤخذ منه الحذر، لأنه سيعمل بشتى الوسائل على نهب وسلب حليفه، فهو يدرك ضعفه، وإلا لما اعتمد عليه. ثم كيف لم يرتدع هؤلاء العرب من عدم الاعتماد على بريطانيا فور إصدارها قرار (وعد بلفور)، وهذا ما يوقعنا في التشكيك بوطنية وعروبة وأصالة هؤلاء؟

ويتوجه الشاعر بحديثه إلى (العَلَم البريطاني)، رأس الفتنة ومشعلها، فهو الذي أضرم نار العداء بين العرب واليهود، يوم استقدم هؤلاء إلى فلسطين، وبدأ يساعدهم على الاعتداء على العرب وسلب ممتلكاتهم، وما كان منه بعد ذلك إلا أن أدار بظهره، وترك الفتيل يشتعل بين الطرفين، وراح يبحث عن قضايا أخرى بعيدة عن هذا الصراع.

ويطلب الشاعر منه، إذا كانت إقامته صعبة وشاقة في فلسطين، مغادرتها، أو البحث عن حلّ منطقي لهذه المشكلة التي كانت من صنعه وتدبيره:

انظر إلى الأوطان وهي دوارسٌ	**وإلى مغاني المجد وهي طلـــول**
الفتنة العميــاء حولــك أُجّجــت	**وذكت، وأنت بغيرهــا مــشغول**
خلّ البلاد لأهلها إن لــم يطــب	**لك فـــي الــبلاد علـــى القتــاد**

لقد تحوّلت البلاد إلى ساحات حرب حقيقية، فتحولت مساكنها إلى أطلال، خلت من أهلها وأُنسه أو بهجتها، وتحوّلت فلسطين إلى جوّ كل ما فيه يبعث الموت والفناء، فسقط من أبنائها قوافل من المجاهدين والشهداء، روّوا

---

(١) الديوان ص٢٣٠.

تربتها بدمهم الطاهر، وارتفعت في الأجواء صيحات الثكالى وعويلهنّ على ما حلّ بالوطن والأهل:

أمست «فلسطين» مُناخاً للرّدى وترابُهـــا بــــدمائها مجبـــول

في كلّ رابيـــة جـــسومٌ مُزّقـــت وبكـــل وادٍ أنّـــةٌ وعويـــل[1]

ويومَ انطلقت الثورة الجزائرية الكبرى (١٩٥٤ ــ ١٩٦٢)، غنّى لها الزركلي وأنشد، وأشاد بأبطالها وشهدائها، وبقوة الشعب وحبه للتضحية من أجل تحقيق استقلال بلاده، وتخليصها من براثن الاستعمار، ولعل ما قدمته هذه الثورة من بطولة وتضحية يفوق ما قدمته كثير من الثورات في وطننا العربي، بل في العالم أيضاً، فلقد بلغت تضحياتها أكثر من مليون شهيد، وقد صور الشاعر بعض صور هذه البطولات، وبعض الممارسات الاستعمارية اللاإنسانية التي ارْتُكِبَتْ بحق أبناء الشعب الجزائري الثائر، من أجل إخماد وثبتهم:

وفي أُفق «الجزائر» وهج نـــار وقـــود لهيبهـــا غيـــر الوقـــود

هشيم ســـعيرها جُثـــثٌ وهـــامٌ ممزّقـــةٌ الغلاصـــم والجُلـــود

تحوم العـــين فيهـــا حـــول دورٍ مُرشّـــــقةٍ بلَطْـــخِ دَمٍ جميـــــد

تفانى أهلها فـــي الـــذّود عنهـــا ســـراعاً بالزّنـــاد وبـــالزّنود[2]

ويصوّر الشاعر همجية المستعمر وقسوته وبطشه لمحاولة القضاء على الثورة، وخاصة أن فرنسا عمدت إلى ضرب القرى والمدن العربية بالمدافع والطائرات، وهدمت الكثير من البيوت فوق أصحابها بالدبابات، ولم تفرّق بين رجل أو شيخ وطفل وامرأة. إذ كانت تهدف من وراء هذا العمل الإجرامي إلى ضرب حركات التحرر الوطنية في مستعمراتها، ولكن الشعب أدرك هذه

(١) نفسه ص٢٣٠.

(٢) نفسه ص٢٩٠.

السياسة وهذا الإجرام فصعّد ثوراته وهجماته على المحتلين، وأدرك أن الكفاح السياسي لا جدوى منه، ولا بدّ من العودة إلى حرب التحرير لانتزاع الحق بالقوّة، لأنها اللغة الوحيدة التي يفهمها المستعمرون:

تمــرَّدَ فــي دســاكرها دخيــلٌ أغــار بكــل شــيطانٍ مَريــد

يروع الحانيــات علــى الــذّراري وَيُلوي عــن مقارعــة الحــشود

ويجــبن عــن مواثبــة الــسرّايا ويــشجع فــي مناوشــة القُعــود

يصبّ النــار مــن أُفــق قريــب ويزحف بالــدبادب مــن بعيــد[1]

لكنّ الشعب الجزائري حَمَى أرضه، حيث انتشرت ثوراته في كل مكان لتحرير أرضه، وحماية أمجاد الآباء والأجداد، ليكون وطناً حرّاً للأجيال المقبلة التي ستُكمل مسيرة الثورة من أجل البناء والتقدم:

لنــا وطــنٌ فــديناه هــضيماً بطارفنــا المؤثّــل والتليــد

رعينــا للبنــين بــه حُقوقــاً ونرعــى الحــقّ فيــه للجــدود[2]

ويتألم الشاعر لما آلت إليه ثورة الأمير «محمد بن عبد الكريم الخطابي» في المغرب العربي ١٩٢١ ــ ١٩٢٦م الذي اضطر إلى تسليم نفسه، بعد أن أذاق الإسبانيين مرارة الهزيمة عدّة مرّات، وأجلاهم عن البلاد وحصرهم في تطوان وبعض المدن الساحلية، حتى فكر بعض المسؤولين من الإسبان بالجلاء عن الريف كلّه. وقد تميزت ثورة هذا الثائر، بأنها ثورة إنسان بطل مكافح، لا يؤمن إلا بالقتال المسلح وسيلة لحل مشكلات الشعوب حلاً جذرياً.

---

(١) نفسه ص٢٩١.

(٢) نفسه ص٢٩٢.

والشاعر إذ يصوّر لنا استسلام هذا البطل، فهو أيضاً يصوّر لنا برود ساحة الكفاح المسلّح الحقيقي بعد هذا الثائر. وقد كانت الجماهير ملتفة حول رايته وقيادته مؤمنة بثورته وأهدافه:

يـــا قاتليـــه تمـــسحّوا بدمائـــه   وتحمّلوا مـــا كـــان مـــن أعبائـــه

لكـــم التـــراث تقـــسّموه مغارمـــاً   ضاقت به الفلوات مـــن صـــحرائه

أســـلمتموه وكـــان فـــي آكامـــه   لا يبلغ الـــسِّرحان جـــاري مائـــه

صمدت تواثبـــه الجمـــوع ثمانيـــاً   كانـــت ســـنين نعيمـــه وشـــقائه

والمسلمون، له صـــفاء قلـــوبهم   شخصت نـــواظرهم إلـــى أرجائـــه

يدعون والدّعوات غيـــر مجابـــة   إن لم يكن للمـــرء غيـــر دُعائـــه

ضنّوا، على إيـــسارهم، بقلـــيلهم   وكثيـــرهم، وتعلّقـــوا بـــسمائه(١)

ويتابع الشاعر أحداث وطنه، وقد كانت آخر قصائده الوطنية تلك التي نظمها إثر (حرب رمضان) بين العرب وإسرائيل عام ١٩٧٣م، التي حُطّمت فيها أسطورة إسرائيل التي لا تقهر. وجعل شاعرنا ذلك النصر مهرجاناً للعرب أجمعين:

المهرجـــــــان المهرجـــــــان   ضـــجّت لـــه إنـــسٌ وجـــان

وتمـــــــدّدت صـــــــرعاه وانتـــــــصف المثقَّـــــــف والـــــــسِّنّان(٢)

ثم يصوّر لن اما دار في الحرب المجيدة من طعان وإقدام فيقول:

ســـيناء والجـــولان أُطلـــق   فـــي فـــضائهما العِنـــان

صـــعقاً بـــصاروخٍ، وقـــذفاً   بـــاللّظى، احتـــدم الطّعـــان

---

(١) نفسه ص٢٧٣.

(٢) نفسه ص٣٠٧.

زحفـــــت جبـــــال جهـــــنم   وغلــت بهـــا الحـــرب العــوان

وتجاوبـــــت قمـــم الـــشّوامخ   آن للظفـــــــــــــــــر الأوان[1]

وبعد أن يرسم الشاعر لوحة الصواريخ المنطلقة من دمشق، لتقذف لظاها على العدو، وتمحو ما ران على القلوب من أحزان الماضي، يختم القصيدة ببيت يُعرب فيه عن ارتياحه للنصر، فيقول:

يـــــا عَـــيْنُ أبكـــاكِ الزَّمـــانُ   وعـــاد يعتـــذر الزّمــــان[2]

وهكذا يبدو لنا أن شعره كان سجلاً للأحداث النضالية الوطنية التي جرى أكثرها وهو بعيد عن وطنه.

ودعوة الشاعر مستمرة دائماً، من أجل تحقيق الحياة الحرّة الكريمة لأبناء وطنه وأمته، فهو يفخر بهم لأنهم أصحاب فتوحات ونضالات وبطولات والحياة عنده إما أن تكون عزيزة، أو فلا:

ألا وثبــــــة إننـــــا أمّــــــة   تُقــص مـــع الفخـــر أنباؤهـــا

فإمـــا الحيـــاة علـــى عـــزّة   وإمـــا المنايـــا وضـــرّاؤها[3]

* * *

---

(١) نفسه ص ٣٠٧.

(٢) نفسه ص ٣٠٧.

(٣) نفسه ص ١٨٤.

ظاهرة الرثـاء

في شعـر الزركلـي

إن أكثر شعراء الشام، كانوا يَهْتّزّون للحَدَث الجلل، فينظمون فيه. وقد كانت البطولات على رأس ما نظم فيه هؤلاء الشعراء والأدباء والساسة والزعماء، وأشادوا بالوطنية والقومية. وكان هذا الشعر يمتلئ بالأمل والنخوة والحثّ على النهوض بالمهمة، والعمل للقضية، فكان أقرب إلى الحماسة والإثارة، فهو من الشعر الحماسي الوطني.

وقد كان شاعرنا الزركلي يبكي الزعماء والرؤساء وأعلام الفكر، بكاءً أدخل في باب الرثاء، تظهر من خلاله عاطفة الحزن والأسى التي يفجرها الشاعر.

وقد رثى الشاعر الشيخ طاهر الجزائري (١٨٥٠ ــ ١٩٢٠)، ولد في دمشق، وله فضل كبير على حركة التعليم فيها، إذا أقنع والي الشام بضرورة فتح المدارس الحديثة حتى لا تحتكر مدارس المبشرين تعليم الناشئين، ثم عيّن مفتشاً للمعارف، وألّف عدداً من الكتب، وكانت له حلقة مشهورة في دمشق يؤمّها صفوة المتعلمين والنّابهين والمفكرين العرب، ساعدت على نشاط الحركة الثقافية ومدارسة تاريخ العرب وتراثهم العلمي المجيد وآدابهم العريقة مما ساعد على انتشار الوعي القومي في النفوس. وقد غادر دمشق إلى مصر فراراً من إرهاب السلطان عبد الحميد. وعندما دخلت جيوش الثورة العربية إلى دمشق عاد إليها فأصبح أوّل رئيس للمجمع العلمي العربي فيها ــ حيث توفي في دمشق عام ١٩٢٠، وابتدأ الزركلي قصيدته بحكمّ الفناء، فلا أحد

مخلّد فوق وجه الأرض، وجميع الناس سينتهون إلى آجالهم، ثم يبيّن الشاعر ما ألم ببلاد الشام ومصر والجزائر من حزن على هذا الفقيد الذي كان ذخراً ونوراً لكل العرب، فهو كالضياء الذي يوزّع نوره للناس كافة، وهو أيضاً يتحلّى بصفات سامية، وأخلاق عالية، ولو أن البكاء يفيد ميتاً أو يعيده إلى الحياة الدنيا لبقي الشاعر يذرف الدموع بغزارة طيلة حياته:

مضى والشام واجفةٌ ومصر — وأرجاء الجزائر في عناء

وكان لكلّ قطر منه حظّ — كما اشترك البريّة في الضياء

بكى الباكون أكرم من تحلّت — مناقبه بزهد الأنبياء

ولو نفع البكاء على فقيد — وقفت له الجفون على البكاء[(١)]

وعثمان مردم، أبو هزار، من شباب سورية العاملين للعروبة في أيام الحرب العالمية الأولى. مرض والجيش العربي على أبواب دمشق، فلما قيل له: خرج الترك، طلب «علماً عربياً» كان قد أخفاه، وقال: جللوني به، فجلّلوه، ففارق الحياة. وقد وقف الزركلي مفتخراً وراثياً له، فقال:

عثمان كُنْتَ أخاً لكل سجيّة — عربيّة محمودة الآثار

هلاّ التفتّ إلى جفُونٍ قُرّحت — وإلى قلوب قد كَوَيْتَ بنار

صرخت «هزار» أبي! أتسمع — لله ما أشجاه صوت هزار!

قد كنت تطمع أن ترى علم الهدى — في العُرب خفاّقاً على الأقطار

حتى إذا انجلت الغياهب لم تكن — لترى تألّق بازغ الأقمار

قُلْتَ: اللّواء، فجلّلوك، ففارقت — دنياك عينك، في أحبّ دثار[(٢)]

---

(١) الزركلي، الديوان ص٢٣.

(٢) نفسه ص٧٠.

ولعل معظم صور الرثاء التي يرسم لوحاتها الشاعر، تدور في مدار واحد، هو الحزن والألم وافتداء الفقيد، وتعداد مناقبه، وذكر أهميته. فهو عندما يرثي رفيق العظم، يتمنّى أن يفتديه بنفسه، ويصوّر حاجة البلاد إلى علمه وهدايته، وافتقاد الأخلاق إلى صاحبها الذي افتقدته، وقد خلّف وراءه كل ذكر حسن، وليت هذه الصورة بالجديدة، بل هي مطروقة منذ أيام الجاهليين:

قـــضى رفيـــق وبنـــا أنفـــسٌ   لو يُفتـــدى لـــم تـــأبَ أن تَفْدِيَـــهْ

العِلْـــمُ مُـــستَبْكٍ وبـــاكٍ علـــى   مـــن عـــوَّد الحـــائِر أن يهديـــه

والعُـــرْفُ مُلْتَـــاعٌ علـــى رَبّـــه   ينـــدب مـــن عُـــوِّد أن يـــسديه

عـــاش رفيـــق طـــاهراً ذيلـــه   أيـــام عقّـــت طُهرهـــا الأرديـــه[1]

ويصوّر لوعة الشّعب وحزنه يوم وفاة الرجل الوطني الكبير فوزي الغزّي، وكيف نزف الوطن دموعه، على من كان أملاً للأمة والوطن، ويستعير الشاعر هنا صورة موت الآمال من أستاذ الصورة الشعرية في الشعر العربي كله ــ الشاعر أبو تمّام ــ:

مشى الوطن المبكيّ مشية مكبـــول   على الهام من أبنائه، أيُّ محمول!

على الهام والأعناق آمـــال أمّـــة   تموت وتحيا بين يأس وتأميـــل[2]

والشاعر في رثائه لهؤلاء الرجال، إنّما يعبّر عن نزعة وفاء خاصة، هي دليل حتميٌّ على أن خير الدين الزركلي لم ينس دمشق بعد خروجه منها، ولم ينس قدماء إخوانه فيها، فما أشدّ حنينه إلى وطنه، وما أرق هذا الحنين؟ ومن إخوانه الذين رثاهم، الأستاذ محمد البزم والأستاذ سليم الجندي، إذ يقول في رثائهما:

---

(١) نفسه ص٩٠.

(٢) نفسه ص٢٥٩.

لمــــن خلّفتمـــــا الميـــــدانْ فقيــــــدَيْ لُغَـــــة القُـــــرآنْ

لمــــن خلّفتمـــــا الميـــــدا ن، والميـــــدان للفرســــــان[1]

أما شهداء الثورات الوطنية في سورية، فيأتي رثاؤهم على صورة تكريم وتعظيم لمواقفهم وبطولاتهم، وغيرتهم الوطنية، ومقارعتهم الاستعمار، وحبهم للتضحية من أجل شعبهم ووطنهم. والأبطال الشهداء أحمد مريود وفؤاد السّليم، سقطا في معارك الشرف والصدام مع المستعمر الفرنسي، لأنهما آمنا بأن التضحية هي الطريق للوصول إلى الحرية والاستقلال وتحقيق أماني الشعب والبلاد. وهيهات أن يكون الموت في ظلال الذل والمهانة والخنوع شبيهاً بالموت في ميادين القراع والطعان والمصاولة:

مصرع الأكــرمين فــي «مجــدل الــشمّس» و«جبّاتــة» منــار الرجــال

مــــصرع الأكــــرمين فـــي «أكــم الــشّام» نـــذير العُـــداة بالآجـــال

إن يكن مات «أحمـد» و«فـؤادٌ» فالـــضحايا معـــارج الآمـــال

الــضحايا رمــز الحيــاة ومعنــى وثبـــات الأقـــوام فـــي الأوجـــال

ليس من مات في ظلال المقاصـير ـ كمن مات في ظلال النّـصال[2]

ويصورّ الشاعر كيف قام الفرنسيون بنقل جثة الشهيد «أحمد مريود» من قرية «جبّاتة» حيث استشهد، وعرضها في دمشق بالقميص والسروال.

ولا نعتقد أن عمل الفرنسيين هذا، هو من باب التعظيم، لصاحب هذه الجثة، بقدر ما هو من باب التهويل والترعيب وحمل الثّوار وأبناء الشعب على الهدوء والالتزام بقرارات وأوامر المستعمر:

أقبلوا يحملــون «أحمــد» وضّــا ح المُحَيــا، مُــضَرَّج الــسرّبال

---

(١) نفســه ص٢٧١.

(٢) نفســه ص١٨٧.

شــــهد الله أنّهـــم حملـــوا مـــو ئـــل مُسْتَـــصرخٍ وليـــثِ صـــيال

حملوا النّبــل والمهابــة والحــزم وصــــدق الأعمــــال والأقــــوال

حملوا البأس والنّدى، حملوا أفـــــضل ما في ابن حُرّةٍ مــن خِــلال[1]

فالشهيد إذاً، سقط وهو راغبٌ وطالبٌ استشهاده، وقد كان في جهاده كالأسد الغاضب الهائج. وهو بالإضافة إلى جهاده، يتمتع بأنبل الصّفات وأكرمها.

ولم يكن الرثاء مقتصراً على أبناء الشام وحدهم، بل تعدى ذلك ليشمل مجاهدين وأبطالاً من البلاد العربية الأخرى. فقد رثى المناضل البطل سعد زغلول. وهو أحد زعماء الحركة الوطنية في مصر، الذين كان لهم دور كبير في نموّ الوعي الوطني وإضرام ثورة ١٩١٩.

ورثاء الشاعر لهذا البطل العظيم، هو مديح وافتخار وتعظيم لهذه الشخصية التاريخية، وهذا يعني أن الشاعر تعدّى حدود البكاء والعويل، فيقول:

وإذا دعــاه الحــزم قــام بعزمــه تتهــــدم الــــدنيا ولا تتهــــدم

ومـــشى كمنبثـــق الأتـــيّ كأنّمـــا هو وحده جيشٌ يـــصول عرمـــرم

يمضي، فتزحف مصر ثابتة الخُطا ويؤمّهـــا، فتميـــل حيـــث يُـــيَمّم

أيام «سيـــشل» لــم تـــثلّم حـــدّه ما حدُّ «ســعدٍ» بالــذي يتـــثلّم[2]

ولم تكن الفاجعة لمصر وحدها، بل هي لكل العرب:

في كل منتجــع قلــوب تــصطلي ملتاعــــة، وبكــــل نــــادٍ مــــأتم

في الشّام، في البلد الحرام توقّــد أَلَماً، وفــي دار الــسّلام تــضرّم

---

(١) نفســه ص١٨٨.

(٢) نفســه ص١٤٢.

حمل النُّعاة الهـول فـي نبـراتهم　　　يا رزء «سعدٍ» إن يومك أَيْـومَ[1]

ويوم انتقل منشئ الدولة العربية السعودية - الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود - إلى رحمة الله، ذرف الزركلي دموعه ودرره الشعرية على الفقيد الذي رعاه في ظلاله، وسانده في نكباته.

وفي هذا الرثاء يختلط المديح وذكر صفات المرثي حتى كأنك لا تحسّ جديداً في تركيب الصورة الفنية، فمعظم صوره في هذا الميدان مطروقة في شعرنا العربي، ثم كيف نرثي فقيداً غالياً علينا، ونهنئ الرجل الذي سيتسلم مقاليد الخلافة من بعده؟ أليس هذا يضعف من قوّة عاطفة الحزن؟

عبد العزيز، قضى، سلمت سـعود　　　ما في الرجال كمن فقـدت فقيـد

جبل أشمّ هوى وغيّب في الثـرى　　　أُحُـدٌ طـوى هـضباته أخـدود

دهرٌ من التاريخ، في عُمْرِ امـرئٍ　　　قَصُرتْ حياة الدهر وهو مديـد[2]

وينقلنا الشاعر في قصيدته إلى ذكر عظمة هذا الإنسان الذي تبدّدت من صلابته أحداث كثيرة، وقامت أفعال جليلة، وكل ذلك بأسلوب وصورة كلاسيكية تذكرنا أحياناً بما جاء به الشاعر المتنبي منذ العصر العباسي:

تتعاقـب الأحـداث دُهمـاً حولـه　　　ويُجيـل فيهـا طرفـه فتحيـد

ويثـور بركانـاً إذا استغـضبته　　　للحقّ، مـا لِلَظَـاهُ فيـه خمـود

وتـراه يبـسم للخطـوب كأنّمـا　　　هو باجتياز شـدادها موعـود[3]

---

(١) نفســه ص ١٤٢.

(٢) نفســه ص ٣٠٢.

(٣) نفســه ص ٣٠٤.

ويوم كان سفيراً للملكة العربية السعودية في المغرب العربي، شهد وفاة ملك المغرب، محمد الخامس، فرثاه بقصيدة طويلة، سار فيها كما سار في قصيدة رثاء الملك عبد العزيز فصوّر المأساة والحدث المؤلم الذي حلّ بالقلوب، وعدد بعض مناقب الفقيد، وهنّأ ولي العهد الجديد بأمور الخلافة التي انقادت إليه بالوراثة:

ما مات أمــس محمــد، ومحمــد ... فـــي الخالــدين ســناؤه وغنــاؤه

ملك تبّــوأ فـــي القلــوب مكانــه ... عرشاً تأصّل في القلــوب ثــراؤه

ما غرّه صفو الزمــان ولــم تنــل ... مــن كبريـــاء شـــموخه أرزاؤه[1]

هذا هو الرثاء في شعر الزركلي، ظاهرة عزف على أوتار ألمها، ووقف فيها على رثاء بعض الشخصيات المهمّة في حياته، والتي كانت له علاقة حميمة معها إلى حد ما، ومن الرجالات الذين رثاهم أيضاً، أسعد داغر، والملك فيصل بن عبد العزيز، ومحمد علي الهنيّي، وهذا واحدٌ من كبار رجالات المسلمين في الهند أيام نضالها مع محتليها البريطانيين.

* * *

(١) نفسه ص ٣٤٠.

صورة الواقع الاجتماعي

في شــعره

أصاب الشعب العربي خلال العهد العثماني من الفساد ما لم يصبه من قبل خلال العصور، فقد فشت الدنايا، وعمّت الرشوة والفساد والجاسوسية والنميمة، وسقطت الأخلاق عامة، وغدا للمال والمنصب والرتبة واللقب مكان فوق مكان الشرف والخلق الرفيع، فلما قامت الحرب العالمية الأولى زادت الفساد فساداً لشدّة الحاجة وانتشار الجوع، وظلام المصائب، فأصبح العاقل يرى الأمراض الاجتماعية فتاكة تكاد تأتي على ما بقي للشعب من إيمان بالمثل العليا. لذلك عكف الشعراء على وصف هذه العلل الاجتماعية.

وكان خير الدين قد تأثّر أيّما تأثّر بما أصاب قومه، فعمد إلى الشعر يبثه شكاته وتسلّق منبره، يخطب عليه، ودلف إلى القوافي يصوّر بها مآسي الشعب في شعر قصصي برع فيه الزركلي غالباً. فصوّر لنا فجائع الحرب العظمى، وأهمها الجوع الذي أصاب الناس، فقد ضاقت «أم شريفة» بوليدها، وسامها نذلٌ وضيعٌ بيعَ أعزّ ما تملك المرأة، فنزلت على كره منها، وباعته بدراهم تقي ولديها الموت والعلة، ولكنّه سرق دراهمها، وولّى، فلا درهماً نالت، ولا نفسها وَقَتْ، وما لقيت من الناس إلا الأذّية[1]:

تصدّى لها من سامها السّوء باذلاً   لها مستجادَ النقش يزهو ويبـــرق

(١)الدهان، سامي، مرجع سبق ذكره ص١٦٤.

فألقت على وجه السَّماوات نظــرة تكاد إذا تُلقى على الصّخر تخــرق

وطال على ابنيها التخلف عنهمــا فباتـــا وداءُ الجــوع لا يترّفــق[1]

وهذه القصص الشعرية تشبه ما خلّفه بشارة الخوري وخليل مطران من قصص البؤس والمجاعة خلال الحرب، والزركلي مع ذلك متين التركيب، موسيقي اللفظ، يحسن اختيار كلماته فهو جزل مع الرقة، ولو ألحّ على هذه الناحية في شعره لمشى إلى الفوز والتوفيق في سائر شعره.

وفي قصيدته (سعد وسعدى)، يرسم لنا لوحة من صور الشقاء الإنساني، ويأتي الحوار على لسان الأم وابنها سعد، حيث تعصف بهما رياح الفقر والجوع والحرمان، وينفطر قلب الأم للحالة الاجتماعية التي أحاطت بالأسرة، وكأنّ صروف الدهر كلّها اجتمعت في حياة هذه العائلة الفقيرة التي لا تملك رمق بطونها، فباتت تمضغ الألم والحرمان، وهيهات أن تنال إحسان الناس وطيبهم، بسبب فقدان الشفقة والمحبّة والإحسان، وكأن قلوب من ملكت أيديهم قد قُدَّت من صخر صلد، ثم يبرز الشاعر من خلف حجاب ومعاناة ليدعوهما إلى «جمعية النداء الخيري» التي ستحلّ المشكلة، فتبتسم النفوس بالأمل:

رَنَتْ سُــعْدَى إليــه، وقـد ألمَّـتْ بهـــا الأحـــزان واشـــتدّ الـــبلاء

بُنيَّ! رويــد عــذلك إن شــجوي لَمِمَّـــا قـــد أحـــلّ بنـــا القـــضاء

ومن كـــان الـــشقاء لـــه حليفـاً فقـــــد أودى بعزّتـــــه الـــــشّقاء

تـــرى أخويــك قــد باتـــا وبتنـــا جياعـــاً، لا شـــراب ولا غـــذاء

أتستجدي الـــورى والنـــاس إمّـــا تُرجّـــي مـــنهم حَـــسَنَاً أســـاؤوا

فجئــت إليهمـــا أمـــشي الهوينـــا كمـــشي الـــشيخ أعجـــزه العنـــاء

---

(١) الزركلي، الديوان ص١٥٠.

وقلـــت: إلـــي والـــدنيا بخيـــر لقـــد ســـمعت دعاءكمـــا الـــسماء

هلـــمّ إلـــى مبّـــرة أهـــل فـــضل شـــعارهم المـــروءة والـــسّخاء

إذا ما المـــستغيث شـــكا أجـــابوا وفرّج عنـــه كربتـــه «النّـــداء»[1]

البناء القصصي هنا ليس جديداً، فعرض المشكلة، ثم تعقيدها إلى درجة فقدان الأمل، ثم بروز الشاعر كبشارة للحل، هذا الأمر، قرأناه في قصة كرم الشاعر الحطيئة، ولكنّ الشيء الجديد هنا في هذه القصة هو فقدان القيمة والفضيلة والمعاني الإنسانية عند البشر. وفي قصيدة أخرى بعنوان «في مجمع الأيتام»، يرسم لنا الشاعر لوحة شبيهة بما رأيناه في قصيدة «سعد وسعدى» حيث تبدأ القصة أيضاً بالمعاناة والبكاء وندب الحظ والأيام وقسوة المجتمع. وأشخاص القصة هنا أيضاً، أمّ وثلاثة أطفال، يدنو منهم الشاعر ليدعوهم إلى مكان أنشئ حديثاً في القدس، هو مدرسة دار الأيتام الإسلامية، حيث تحلّ مشكلتهم هناك:

أيتهـــــا الثاكـــــل لا تفرقـــــي أيّتهـــــا المطفـــــل لا تجزعـــــي

إنّ بنـــــي عمّـــــك قـــــد أزمعـــــوا والـــنّجح كـــل الـــنّجح للمُزمـــع

شـــــادوا لأبنـــــائهم مجمعـــــاً أعظم بنادي العلم مـــن مجمـــع[2]

وتقول جريدة المقتبس (بدمشق) في صدر عددها (٢١٦٦) بتاريخ ٥ جمادى الثانية سنة ١٣٣٥، ٢٨ مارس ١٩١٧، ما يلي: (اطلع صديقنا خير الدين الزركلي الشاعر المعروف في صحف بيروت الواردة مع بريد اليوم على نبأ يقول: «نزل شخص إلى المرفأ، وألقى بنفسه إلى البحر، ولمّا شعر به القريبون،

---

(١) نفسه ص٣٧.

(٢) نفسه ص١٨١.

تهافتوا لانتشاله، فإذا هو ميت، ولدى التحقيق، فُهِمَ أن الرجل ذو أسرة مؤلّفة من ثمانية أشخاص، عجز عن إعاشتهم، فألقى بنفسه تخلصاً من هذه الحياة الضنكة»، ولم يكد يتمّ قراءة الخبر حتى تناول قَلَماً، فأنشأ القصيدة الآتية:

ما بال بيروت لا تبكي العيون بها	**دماً وتضطرب الأكباد من ألم**
تلوت في صحفها من أمرها نبأ	**لم يبق في القلب عرقاً غير**
والقوم في غفلةٍ ما ثَمّ مُتّعظٌ	**يُرجى، فيرحم أو يُنجي من النّقم**
بَيْنا هم في ضفاف البحر قد شغلوا	**بحُسْن مرآه عن هَمّ وعن سَقم**
يغازلون من الأمواج ثائرها	**لاهين منها بمُهتاج ومُلتطم**
إذا امرؤٌ كان فيهم غير مكترثٍ	**له، انبرى، وتمشى ثابت القدم**
ألقى إلى اليّم بالنفس التي كَرُمَتْ	**يدعو المنيّة لم يوجل ولم يَجم**
وسارعت نحوه النُّظّار تُنقذه	**ومن يُغيث طَلُوب الموت والعدم**
تهافت الناس كيما يمنعوه ردىً	**فأنقذوا جثّةً غاصت ولم تَعُم**
قضى شهيد صغارٍ لا نصيرَ لهم	**ولا مُغيث فأبكى مقلة القلم[١]**

في هذه القصّة يبرز أمران، الأمر الأوّل هو صورة الإنسان الذي قدم إلى البحر، فرأى فيه مصدراً للترويح عن النفس والمتعة والسّعادة، والأمر الثاني هو صورة الرجل الذي قدم إلى البحر، فرأى فيه ملجأ لأحزانه وهمومه فأراد دفنها في صدر البحر، لأن العالم الإنساني قد ضاق بهذه الهموم. فيكون المجتمع هو القاتل الحقيقي لهذا الرجل، وليس البحر؟ البحر هو المنقذ، والمجتمع هو مرتكب الجريمة.

---

(١) الديوان ص١٩٣.

وما هدف الشاعر من عرض هذه القصص الاجتماعية المؤلمة سوى رسم لوحة عن طبيعة الحياة في ذلك الزمن، وفي ظل ذلك المجتمع، فأين هو الحبّ الإنساني، والتعامل الإنساني والإحسان والخير ومدّيد المساعدة إلى أمثال هؤلاء؟ أما في قصيدة (هدية الشمس)، فهو يرسم لنا صورة فتاة جميلة، تقدّم إليها أبواها، يقنعانها بخطيب ذي مال وجاه، ولكن عمره ستون عاماً، فثارت بينهم قضية الزواج من غير الكفؤ، وتقرّبت الأم منها بأسلوبها تغريها به، وبأنّها ستصبح غنية، وسترثه بعد أن يموت عما قريب، وتقبل الفتاة بالشيخ العجوز زوجاً لها، وباتت ترقب موته. لكن الشيخ يفقد ثروته قبل أن يموت، فتُصاب الفتاة بهمّ عظيم، إذ إنها فقدت كل آمالها، وساءت حالتها من هذه المعاناة (الشيخ والفقر)، وأصابها صراع نفسي، فنفذ صبرها، فتناولت كأساً من السّم، وابتسمت للموت.

ويرى الشاعر أن هذه المأساة سببها الطمع والجشع، وأن العلم سبيلٌ للقضاء على ما آلت إليه الفتاة، فعلمها يفيدها، ويجعلها تصدر أحكامها بصورة أكثر عقلانية ومنطقية، ولو أنّها ربّيت بصورة مهذبة، لما حصلت المشكلة، ولأفادت المجتمع، وكانت ربّت أسرة أكثر صلاحاً، إذ إن المرأة هي الأساس الذي تنهض به الأمة، ويقوم به المجتمع:

قالت الأمّ لها:

يـــــا حبّـــــة القلــــــب اقنعــــــي - بالنـــــصيبْ
هو شيخٌ، سوف يقضي بعد حــين، فــدعي - مــا يُريــب
تــرثين المــال جمّــاً، فهلمّــي واجمعــي - مــا يُــصيب
والأب الجاهــل مُــصغٍ لهمــا، ذا طَمَــعٍ - بالخطيــب
أقنعــــا بنتهمـــــا، فارتـــــضت الـــــشيخ، فطـــــالْ
مكثهـــا فـــي أهلـــه، مكثـــاً علـــى أســـوء حـــالْ
تــرقــبُ البنــتُ بمــوت الشــيــخ، حَــلاً مــن عقــال[1]

---

(١) نفسه ص١٢٠.

قد نلتمس العذر لهذه الأسرة، عندما نعلم أن تاريخ كتابة هذه القصيدة، هو عام ١٩١٧، وهو زمن انتشر فيه الفقر والجوع وكثرت فيه المآسي الإنسانية، وما هو رأي شاعرنا لو اطلع على مثيلات هذه الأسرة في عصر الحضارة والعلم والتقدّم؟

الشاعر عرض القصّة بأسلوب هادئ وحواري، ورسم ظلال القّصة وأحداثها بطريقة تعبّر عن دمار الحياة المقبلة في حالة استمرار الزواج على هذه الشاكلة.

موسيقا الأبيات جاءت على البحر الخفيف، فهو في الأبيات الأربعة الأولى يأتي بخمس تفعيلات وهذا ليس من صحيح الخفيف أو مجزوئه، ثم يعود في الأبيات الثلاثة الأخيرة، ويرسمها على المجزوء، وكثيراً ما يتشابه الخفيف والرمل.

وفي قصيدته (لم تفِ يا قَمَر) صنع الزركلي ألواناً للبؤس مختلفة، يبدو أنه قالها حين احترقت مكتبته، فصبّ في شعره ألوان المآسي التي كان يراها حوله، فمن فتاة حسناء، أفقرها الزمان، وجرّدها من الجمال، فتصرّف بها القدر ساخراً هازئاً، ومن نابغة طوته المنون، ومن غريب عاش كئيباً مضطرباً، ومن جريحٍ يطوي الليالي مسهّداً، ومن حروب تقوم بين الناس فتفني كلاً من الجانبين...

لم تُبْقِ أيدي الحادثات ولم تَـذَرْ فعلام تضحك في سمائك يا قَمَرْ

أرأيــــــــت تائهـــــــة علــــــــى أترابهـــــــا

فتّانــــــــــة بــــــــــــسفورها وحجابهــــــــــا

خلابــــــــــة بــــــــــدلالها وعتابهـــــــــــا

غلاّبــــــــــــة بحــــــــــديثها وخطابهــــــــــا

ذهـــــــب الزّمـــــــان بمالهــــــا وشـــــــبابها

وتـفـــــرّدت بـأنــيـنــهــــــا ومُصـابهــــا

ناجتك شـــاكيةً تــصاريف القَــدَرْ وظللت تضحَكُ في سمائك يا قَمَر؟[١]

هذا موشّح طريف عذب، في معانٍ بسيطة سلسلة، ولغة سهلة، وقواف لينة تنسال انسيالاً في الآذان كما تنسال الموسيقى الهادئة. وقد وفّق الشاعر في وصف الحياة وصفاً فلسفياً على صور أخّاذة، كما وفّق إلى رسم الأخلاق في المجتمع، بشعر بسيط كذلك، فرأى أنّ الحقّ لا يُحترم، وإنّما تحترم القوّة، وأن الكذب سائر مصدّق، وأن الحرص على الجاه والمنصب والتاج علّة الناس[٢]:

أيـــة نفـــسٍ مـــن أســـى ناجيـــه والنـــاس فـــي حالكـــة داجيـــهْ

هــذا ينــادي: منــصبي منــصبي وذاك تــاجي ويحكــم تاجيَــهْ!

وإنّمـــا الفـــوزُ لـــشعب صـــحا والخسر حـــظّ الأمّـــة الـــسّاجيهْ[٣]

ولعلّه تأثر في هذه الأوصاف الاجتماعية بشعر أبي العلاء، فتناول المفاسد، والأخلاق، ورسمها في زمانه، فكأنه المعريّ يصف زمانه، وكأنّ الأيام لم تتبدل، والناس هم هم، وفي شعره الزهد بالمال ووصف الدهر، ورسم الموت، وعظة الحياة.

وشعره الاجتماعي، يدل على عمق وفلسفة وحكمة، ولعلّها من كثرة قراءته أو من وفرة اختلاطه بالناس، ودخوله في السياسة، وتنقّله في الأمصار العربية، والمناصب السياسية، فهو يصف الناس[٤]، فيقول:

أيــضحك ذو اللّــب ممـــا يـــرى وفي عـــالم الأُنـــس مـــا يُـــضحك

عزيــــزٌ يـــــذلّ، ودونٌ يحـــــلّ وفـــــي كـــــل أرض دم يُـــــسفك

---

(١) نفسه ص١٩٧.

(٢) الدهان مرجع سبق ذكره ص ١٦٥.

(٣) الزركلي، الديوان ص ١٥٦.

(٤) الدهان، مرجع سبق ذكره ص١٦٦.

بــريء يعدّونــه فــي الجنــاة وجــانٍ يبَّــرأ أو يُتــرَكُ

رأيــتُ ســبيل الهــدى وَعْــرَة ولم أر في الناس مَــنْ يــسلك[١]

ولم ينس الشاعر أن يرسم لنا صورة الإنسان الفسطيني (اللاجئ)، هذا الذي أغرق الأرض بدموعه ولم يساعده أحد على تجاوز محنته، وكأن الناس لا يساعدون الضعيف، ولا يأخذون بيده؟

اللاجئ، معروفة قصّته، لقد جاء الغزاة إلى أرضه، وطردوه منها، وتركوه في مهبّ الريح، تنهش من لحمه الصهيونية تارة، وتنهش من الحكومات المتواطئة تارة أخرى، فيسقط شيئاً فشيئاً، حتى ينهار وينسحق:

دموع مَــنْ تلــك التــي تُــذْرَفُ؟ وقلب مَنْ، هــذا الــذي يُوجَــفُ؟

إن كــان إنــساناً فهــلا صــغى إليــه مــن يــرحم أو يــرأف

أم ليس في النــاس لمستــضعف مــن ناصــرٍ يعطــف أَوْ يُنــصف

جــرَّده مــن بأســه غــادر وســامه الذلَّــة مُستَــضعِفُ

ألقــت بــه الأيــام فــي هــوّة أَيْــسَرُ مــا يلقــى بهــا المتْلَــفُ

يــصارع الحِــدْثَان جيّاشــة كأنهــا فــي فيلــق تزحــف

إن ردَّ منهــا مُوجفــاً خَطْبَــهُ عاجله مــن خطبهــا مُوجِــفُ[٢]

إلى أن يقول:

لو أنصف النــاس لمــا رُوِّعــوا فــيم يُــراع الأعــزل الأضــعف

بــين الــتعلاّت وبــين المنــى فــي كــل يــوم لهــم موقــف

---

(١) الزركلي، الديوان، ص٢٩٩.

(٢) نفسه ص٣٣٣.

يثرثـــر الـــساسة مـــن حـــولهم	**هـــــذا يُمنـــــيهم وذا يلهـــــف**
كـــــأنّهم حقـــــل تجـــــاريبهم	**ولـــيس مـــن يانعـــة تُقطـــف**
أطبَّـــةٌ حـــول ضَـــنٍ شَـــرَّحوا	**جُمانـــــه، وعينـــه تَطْـــرفُ!**[1]

ويغلب على هذا كلّه صور ةاليأس من الناس، والوجوم والحزن والتشاؤم، سواء في ذلك وصفه للحياة أم الأحياء في عصره، فلعلّه أخذ من الجو السياسي البغيض صورة للتفكير والحكمة، بل لعل حال العرب وتفككهم هو الذي ساقه إلى هذه النظرة السوداء.

ومهما يكن من أمر فقد نظم الزركلي في أسرار الوجود وفي حقيقة الورى، ولا نستطيع أن نقطع ببعده عن معاني القدماء وأخذه عنهم، فقد تكلّف أول الأمر بالسّير على خطاهم، وظهر أنه يحاول أن يكون شبيهاً بالفحول منهم، فأخذ من البحتري والمتبني والمعري، حتى اتهمه بعض النّقاد بسرقة تلك المعاني والعدوان عليها، ولكن الرجل سرعان ما استقلّ بمعانيه وألفاظه فأصبح على الزمان متمكناً من ناصية الشعر والمعاني، يصول فيها ويجول، لولا أن الوظيفة والمناصب السياسية استلبته من قصر الخيال إلى خيال آخر فيه أنماط من العيش لا يدركها الشعر ولا يطرقها.

وفي شعره متانة التعبير ودقة التصوير وأصالة الشاعر، وتعلّقه بعمود الشعر في كثير من قصائده، وتوليده لأساليب في النظم، وطرقه للموشّح، وتقليده لشعراء الغرب، أو شعراء العرب في الأندلس.

فهو من شعرائنا الكبار السوريين، كان يبشّر بمستقبل عظيم لو لم ينقطع عن الشعر إلى السياسة وإلى التأليف العلمي في تراجم الأعلام، ولكن

---

(١) نفسه ص٣٣٤.

هذا الانقطاع لا ينزع عنه صورة الأديب الفحل والشاعر الموفق والوطني المخلص والعربي الأبيّ المناضل والسياسي المحلّق(١).

ولعلّ آخر ما رسمه الشاعر من صور الواقع الاجتماعي، هو صورة الحرب اللبنانية، التي ما زالت نيرانها تشتعل حتى اليوم، وبعد خروجه من مستشفى الجامعة الأميركية ببيروت، صهرت روحه نيران القناصة، فانفجر يردّد هذه الأبيات، يخاطب فيها «قنّاصاً»:

اضــــرب فهـــذا أخوكـــا … واطعـــن فـــذاك أبوكـــا

ألـــست قنّـــاص حـــيّ … أقـــام فيـــه ذووكـــا

بنـــو عمتـــك الأقربـــون … بـــل هـــم بنوكـــا

ويـــرحم الله مـــن إن … رُحِمْـت، لـم يرحموكـا!!(٢)

وقبل وفاته بثلاثة أيام، وقبل أن تدهمه غيبوبة الموت، وكان كل همّه وترقبه، أن تنفرج الأزمة في لبنان، وقد أرهقت روحه بفواجعها وكوارثها، كتب الأبيات التالية، ودسّها تحت وسادته، حيث وجدتها إحدى بناته:

متـى تتبـرّج الـدنيا ويـشدو … هـزارُ ربيعهـا بعـد النحيـب

وتبتسم الأزاهـر فـي رُباهـا … معطّرة النّـدى بـشميم طيـب

أمـا للكارثـات مـن الرزايـا … ختام بـين..... والـصليب(٣)؟

وأعتقد أن الكلمة المحذوفة هي كلمة (أحمد)، لأنها مناسبة معنى ومبنى.

---

(١) الدهان، مرجع شبق ذكره ص١٦٧.

(٢) الزركلي، الديوان ص١٩.

(٣) نفسه ص١٩.

الشاعر والغزل

الحديث عن جانب الغزل في شعر الزركلي، يكاد يكون قصيراً، ولعلّ هذا الأمر مردّه إلى أن الوطن قد ملأ قلبه بهواه ورؤاه وتاريخه وآلامه.

فقد تلفّت الرجل منذ مطلع شبابه إلى معالي الأمور، ونظر إلى نضال قومه نظرة الجدّ، فعكف على رسم النضال والكفاح، وعاف ما دونهما من غزل ونسيب وهوى[(١)].

ولعلّ الشيء الذي ملأ وقته أيضاً، وصرفه عن هذا الأمر، عمله في موسوعة الأعلام، خاصة وأن هذا الأمر يحتاج إلى البحث الدائم، والعمل الحثيث، والجهد المتواصل.

ولكن! تبقى للنفس الشفافة غنائيتها في أوقات السّحر والصّفاء، فالشاعر بشر من لحم ودم، لابدّ وأن يعزف جمال المرأة وسحرها على أحد أوتاره، فيسمعه لحناً، يأخذ بالألباب، ويعصف بالقلوب، فتنسابُ أشواقه على قيثارة العشق.

وتستبد بالشاعر معاناة الحب، فيرقب طلعة الحبيب مع النجم المشرق، ويسأل الليل المتجهم عن سبب غيابه، ويتذكّر معه أيام الوصل واللقاء، يوم كان ينعم بالسعادة والدفء، حين تذوب أنفاسه بأنفاس الحبيب، فيشرق كل شيء في قلب الشاعر وروحه؛ فتكون لغة عواطفه، بثّ الأشواق والمعاناة، ووصف اللقاء بمن أحبّ، وتحقيق الرغبة الجامحة:

---

(١)الدهان، سامي، الشعراء الأعلام في سورية ص١٦٣.

دعيني والسماءَ علـــى انفـــراد أناجي الـــنجم يطلـــع أو يغيـــب

وأسأل عنكِ غاشـــية الـــدّياجي وإنْ تكـــن الـــدياجي لا تُجيـــب

أذاكـــــرة لياليـنـــــا اللّـــــواتي مضين وكُلُّهـــن هـــوىً وطيـــب

عنــــاقٌ لا يكـــــدّره فــــراقٌ وضـــمٌّ مثلمـــا اتقـــد اللّهيـــب

وأنفـــــاسٌ لأنفـــــاس مـــــزاجٌ تكـــاد بهـــنّ أوداج تـــذوب[1]

وتراه أحياناً أخرى، يعلن بأنه يذرف الدمع لأجل الهوى والغرام الذي علق بقلبه وليداً. وهذا الأمر يُعلنه في قصيدة (غزل) التي كتبها عام ١٩١٢، كما يذكر في الديوان، وهذا الأمر أيضاً يقودنا إلى التساؤل عن مجموعته الشعرية (عبث الشباب) التي احترقت في مطبعته، وأكلت النار أصولها. وعمّا أطلقه عليه الدكتور سامي الدهان عن عزوفه عن الهوى والعشق، وتعلّقه بالهمّ الوطني، حيث خلا ديوانه الأوّل من همسات العشق. فإذا كانت أصول أشعاره الأولى قد احترقت، وخلا الجزء الأول من ديوانه الشعري، وفيه ما نظم إلى سنة صدوره /١٩٢٥/ على حدّ زعمه، فمن أين تسرّبت هذه القصيدة مؤرّخة في ديوانه بعام /١٩١٢/؟

بما أن الشعر الذي ضمنه في ديوانه الأول يحوي على كل ما نظمه حتى عام ١٩٢٥، فالمفروض أن يضم الديوان هذه القصيدة، أو أن يقول الشاعر: لم يحو هذا الديوان على كل أشعاري التي نظمتها حتى هذا التاريخ.

وعلى كل حال، هذه قضية يجب الانتباه إليها.

وأشواقه في القصيدة تعبّر عن هيام الشاب العاشق، ولوعة قلبه، وتعلّقه بمن أحب، فاستبد الهوى بنفسه وتمكّن:

تِهْ، طال تهطالُ دمعي في هوى وبالنّوى ونُواحي طال تسهيدي

---

(١) الزركلي، الديوان ص٢٧.

يا زائد الصدّ صادت مقلتاك فتىً فتنته بجمالِ الخال والجيد
علمتني بالنّوى حُكْمَ الهوى أشكو الجوى وتباريحي وتنكيدي
لي الأنينُ، وللقلب الحنينُ، وللـ ـعين الهَتونُ، وتخديد[1]

هذه المعاناة من المحبوب قرأناها في أسفار معظم شعرائنا في كل العصور، ولمسنا حرارة أشواقهم وعواطفهم، خاصة عندما يجفو الحبيب ويبتعد.

ويلحّ الشاعر على ظاهرة التشوّق لمن أحب، حتى كأن نار الشوق موقدة بين ضلوعه، وكل ذلك أملاً بلقاء الحبيب الذي يسعده بوصله:

طال إليها حين حا ن وعْدُها، تشوُّفي
وبي من الشَّوقِ لهيـ ـبٌ نارُهُ لا تنطفي
وعُودها مُسعدتي والمطلُ منها مُتلفي
عَرَّفني دلالها في الحبّ ما لم أعرف[2]

ونظراته تلاحق مَنْ يهوى، وما أجمل أن يتأمّل وجه محبوبته، ويعيد فيه التأمّل والنظر، وما ذلك إلا لأنه يسعده، ويربط قلبه بسحر الجمال الفاتن:

تمايلت ضاحكةً غانيةً رصدتُها
لمّا بدا لي وجهها أسفتُ إذ شهدتُها
ونظرةٍ صَوَّبتها ونظرةٍ صَعّدتُها
لو استعاد ناظرٌ نظرتَهُ استعدتُها[3]

---

(١) نفسه ص١٤١.
(٢) نفسه ص١٣٦.
(٣) نفسه ص١٤٧.

والمقاطع هنا تأتي خفيفة الوزن، رشيقة العبارات، جميلة المعاني، لأنّها تعبّر عن عواطف الشاعر العامرة بدفء الحبّ.

وتأسر قلبه فتاة بدوية، تعبّر ملامحها عن الأصالة والنجابة والتحضّر، فهي غزالة شردت بين الفيافي وراح الصياد (الشاعر) يلاحقها بنظراته وعواطفه على الفور، لأنه تعلّق بحسنها وجمالها، حتى إنها أَنْسَتْهُ كلّ ما عهد من جمال وحبّ، فهو بهذا يعيدنا إلى الحب العربي الذي نما وترعرع في كنف وبين أحضان صحرائنا العربية في عصور متقدمة:

جـــــلا بدويّـــــة العينيــــــــــــــن حُــسْنُ نــضارة الحَـضَرِ

غزالــــة سَبْـــسَبٍ شَـــرَدَتْ وكُنْـــتُ لهـــا علـــى الأَثَـــر

عرفـــت الحُـــبَّ يـــوم عرفـــــــــتها، وجهلتـــه عُمـــري[1]

وأحياناً يرسم لنا لقاء، مع فتياته بصيغة الحوار القصصي، فيقول:

قالـــت لـــصاحبة لهـــا: أتريـنَـــهُ ممنْ تدلَّـــهَ بـــي؟ فقلـــت أُرانـــي

قالت: سبيلَكَ. قلت: حيث ســريتِ قالت: أتـــشغَلُنا؟ فقلـــتُ: عَـــساني

قالت: أطلْتَ. فقلت: ليست بمقصرٍ قالت: تَنحَّ. فقلتُ: طـــاب مكـــاني

فتحوّلـــــت، وتتبعتهـــــا نظـــرة منـــي، فعـــادت عـــودة الغـضبان

وإذا بـــأتراب لهـــا اســـتبطأنها فأحطْنَ بي فرأيْـــتُ حُـــور جِنـــان

وتركنني فكأنني اســـتيقظت مـــن حُلُمٍ، ولم يُطق الكـــلامَ لـــساني[2]

والقصيدة مؤرّخة في ديوانه بسنة (١٩٢١)، وهذا أمر يثير التساؤل الذي طرحناه سابقاً.

---

(١) نفسه ص٩١.

(٢) نفسه ص٣٨.

وكغيره من الشعراء، وبعد أن غزا الشيب رأسه، وطعن في السن، أصبح يبتعد عن معاشرة الفتيات، وكأن الأمر أصبح عيباً، فيطلب من الفتاة العاشقة، التي ما تزال في أوج عنفوانها أن تبحث عن شاب مثلها في الحرارة والأشواق، لأنّ مسافة العمر بينهما تمنعه من الإقدام على الحبّ، ومبادلة الشعور:

أنــــا فــــي شــــيبتي أودّع أيّــــام ... شبابي، وأنــــتِ فــــي عُنفوانــــك

بَعُدَتْ بيننــــا المــــسافة فاســــقي غير قلبي كــــاس الهــــوى مــــن

إن شعره الغزلي يعيدنا إلى صورة ما قرأناه في الشعر العربي من لقاءٍ وحبّ وأشواق وهيام وصدّ ومعاناة، وإقبال على المرأة في مقتبل الشباب، ووصف المغامرات العاطفية، ثم الابتعاد عنها أيام الشيب والشيخوخة، فهو بغزله شاعر تقليدي.

* * *

(١) نفسه ص٦٤.

من الخصائص الأدبية

في شـعره

دخل خير الدين الزركلي عصرنا الحديث بهيئة الحكيم الوقور الذي يحمل في عباءته تاريخ أمته العربية، ورحلة مسيرتها منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا، «وقد خُلِقَ الزركلي للشعر، وخلق الشعر له، خلقه الله شاعراً من أول حياته، ففي قامته المديدة، وفي عينيه الناطقتين وفي عذوبة حديثه إذا حدّث، وفي شدّة غضبه إذا غضب، وفي حلاوة رضاه إذا رضي، وفي لطائف نكته إذا مزح، في هذا كله برهان قاطع على امتزاج الشعر بنفسه، فهو شاعر ملء روحه وملء قلبه، حمل لواء الشعر في الشام في وقت كان عدد الشعراء فيه محدوداً، وقد دفع حبّ خير الدين للشعر إلى تكريمه كبار الشعراء إذا جاؤوا دمشق، فقد لجأ شاعر العراق الشيخ رضا الشبيبي إلى دمشق في أيام حكومتها العربية هرباً من احتلال العراق، فدعاه خير الدين على سهرة في داره في حيّ السّمانة، يقول: وكنّا أربعة، أنشد بعضنا شيئاً من شعره في السهرة وما كان الشعر في ذلك الوقت إلا إعراباً عن النزعات الوطنية.

وحسب خير الدين الزركلي امتزاج روحه بروح البحتري والمتنبي، لتجتمع له أصالة الشعر ومحاسن الذوق وحلاوة الصور وسهولة الألفاظ وعذوبتها، لقد تجلّت هذه الفضائل كلها في شعره، تجلّت في قصائده الوطنية التي فاضت محبة لدياره وشغفاً بوطنه وثورة على المعتدين عليه، وتحريضاً على إخراجهم من ديارنا.

وعلى الرغم من قوّة خير الدين في الشعر ومن إحاطته بدقائقه، كان لا يتذمم من رأي يبدى له في بعض شعره إذا كان في هذا الرأي ما يعترف بصحته، فقد جَمَعَنا في يوم من الأيام مجلسٌ، فكان خير الدين يروي بعض أبيات من شعره، في جملتها هذه البيت:

إذا ضـــلّ الهـــداة فلـــيس بـــدعاً ضـــلال الـــسالكين بـــلا دليـــل

فقال له جليس من الجلساء، لو قلت يا خير الدين:

إذا ضـــلّ الـــدليل فلـــيس بـــدعاً ضـــلال الـــسالكين بـــلا دليـــل

لكان قولك أوقع، وكانت نغمة الموسيقى أعذب، فقبل خير الدين رحمه الله هذا الرأي، وحذف لفظ الهداة، واستعمل الدليل، وفي هذا برهان على اعترافه بموسيقى الشعر، ولماذا لا أقول: على روحه الشعرية.

وإن عظمة خير الدين تنحصر في ثلاثة أمور:

- في شعره الذي حمل لواءه.
- في وطنيته التي جاهد في سبيلها.
- في أدبه الذي استغرق سنين غير قليلة من عمره»[١].

ويقول الدكتور شكري فيصل ــ رحمه الله ــ :

إننا نؤخذ حين نقرأ شعر الزركلي... ذاك نمط من رفيع البيان ورائع التصوير، ونيّر الأداء... لم يبق من القادرين عليه إلا القلّة... إنه أحد هؤلاء الذين صاغهم وصفّاهم لهب نهضتنا على نحو ما كانت النهضة من ثمارهم... والظاهرة البارزة عندهم، لا نكاد نجدها عند غيرهم، أنهم أوتوا الموهبتين:

---

(١) من كلمة للشاعر شفيق جبري في كتاب: علم الأعلام ص ١٦.

موهبة الشعر وموهبة النثر... لقد كنت منذ سنوات بعيدة ألمح هذه الظاهرة وأحاول سبرها... ولعلّي انتهيت - أو قاربت - إلى أنها ظاهرة توشك أن تكون أشد وضوحاً في هذا القطر الشامي منها في أي قطر آخر... إنك تقرأ نثر الزهاوي أو الرّصافي، فتحسّ هذا الوادي الذي يفصل بين شعره ونثره... وتقرأ نثر شوقي فتجد أنه شيء آخر رائع، ولكنه غير شعره... وواضح جداً إحساسك بهذا الفرق بين نثر حافظ وبين شعره... على حين يستبيك أن تقرأ لجبري شعره الرفيع، كما تقرأ له نثره الرفيع... وتقرأ لمردم ما كتبه في النثر فإذا موصول الأسباب بروح الشاعر عنده... وتحار مثل هذه الحيرة حين تقرأ الزركلي شاعراً، وحين تقرؤه ناثراً... فكيف يُسِّر لهذا الجيل من رجال البيان عندنا - ومثلهم - أن تكون لهم هذه القدرة المزدوجة، وأن يكون نتاجهم هذا الدينار المجلو المصقول الواضح، كتبوا على إحدى صفحتيه شعرهم، وكتبوا على صفحته الأخرى نثرهم... فجاء هذه القطعة الواحدة التي لا تملك أن تفصل بين وجهيها... كلاهما يتعاونان على صياغتها، وكلاهما يهبانها قيمتها (... على مثل ما تتألف خيوط اللحمة والسّدي في صياغة قطعة النسيج وصبغ ألوانها وصوغ شياتها).

لا أزال أذكر ما كان من صلتي بآثار الزركلي منذ الحداثة... في البيت قرأت هذا الديوان الذي طبعه في القاهرة سنة ١٩٢٥ حين أيس من السياسة والصحافة فانصرف إلى الطباعة... لون غلافه هذا الأخضر، وقَطْعُه هذا الذي يخالف القطوع الأخرى كان من علامات الاهتداء إليه، حين كنت أُضِلّه فأنْشدُه... كذلك كنت أحسب وإنّما كان يهديني إليه، على نحو ما أدركت بعدُ من خلال ممارسات الحياة وتجربة العمل القومي، هذه الروح الثائرة التي كوتها الأحداث... كان له في عيني لون النار، وكان له في أنفي عبق الثورة

وبهذا العبق صرت أعرفه، وبهذه الروح التي حملت هموم أمتها والتي تطلعت إلى بعيد ثم غلبها الواقع على مثلها وتطلعاتها... كنت أحسّ فيه هذا الشعر الدافئ اللاهث وكنت أقرأ وأكرّر القراءة»[١]:

عــــصفورة النيــــربين غنّـــــي   واروي حــــديث الأنـــين عنّـــي

أنـــا المُعنّـــى ومـــا المُعنِّـــي   غيـــــر حنــــين أذاب منّـــــي

شـــغاف قلبي وحســـــن ظنـــي

عــــصوفة النيــــربين نــــوحي   يُضمِّد النَّـــوْح مـــن جروحـــي!

لم يُبْق لي الهمُّ غيـــر روحـــي   ما القلب ما الجـــسم بالـــصحيح

مـــا بـــي عـــرق بمطمئـــن[٢]

ويقول الدكتور شاكر مصطفى:

«.. وفي الشعر... في الشعر كان الزركلي في النصف الأول من قناديل تلك الأيام الأولى، الدفعة الشعريّة التي غذّت نهضة العرب بالقوافي، في الربع الأول من هذا القرن، كان أسياد المنابر فيها الرصافي وشوقي وحافظ والزهاوي وإسماعيل صبري، كان فيها للزركلي منبره أيضاً، رغم شبابه الغضّ، فاتحاً دخل ندوة شعراء النهضة أولئك، وسيّداً من أسياد القافية، أخذ مكانه بين أبناء عبقر المنتشين... وكل ما عرفه الناس عنه يومذاك، أنه نبتة عربية أصيلة نبتت. ما كان يعرف أي لغة أخرى يوم قال الشعر، ولا أي مذهب من مذاهبه ومدارسه، وما يسطرون.

الكتاتيب، ثم كتب العرب وعلماء دمشق ودواوين التراث كانت عدّته، فإذا هو انطلاق على البحور وقافية مطواع ولغة أطوع... الشعر، هذا اللص

---

(١) المصدر السابق ص٧١ ــ د. شكري فيصل.

(٢) الزركلي، الديوان ص ٩٣.

الأزلي الذي يسلب العرب حلومهم منذ الأزل، كان يتنزّل على لسانه كالحديث العفوي، وفي الشام حيث الكلمة الحلوة عبادة، وحيث الأقاليم القومية قدس الأقداس، وحيث يعرض بردى، ويعرض ليماشي النيل والرافدين، ويغزر، وهو الساقية المسكينة ليصبح النسغ القومي للملايين، لابد للشاعر أن يفهم هذه الأبجدية الشامية، ليكون شاعر الجماهير وشاعر القضية... ولقد فهمها الزركلي كأحسن ما يكون الفهم. بردى بمائه البهيمي، كالخمرة المعتقة، سقاه حتى النخاع الشوكي. ومن أدغال إدلب والحور المخضلّة بالفيء والهدير في النّيربين، كان يصوغ طينه الشعري. وكما يطلع الحقل السنابل ولا يدري، وتشمخ شمم الجبال ولا تدري، ويتدفق الينبوع ولا يدري، كذلك كان الزركلي يقول الشعر خصباً شامخاً متدفقاً... أكان يقول الشعر؟

لا... كان يمطر... وكان مطراً بغزارة البكاء وحرارة البكاء... الياسمين الدمشقي ثرثار يتفتح بآلاف الدموع ويلقيها على أكتاف الحارات وفي صحن الدار... أكان ضلالاً بكاؤه؟ ذلك التناقض بين الأحلام الطوباوية، وبين صخور الواقع، كان يمزّق الزركلي. تلك النقلة الدائمة بين التفاؤل والتشاؤم كانت جرحاً على مثاليته وموسيقى نفسه. في غمرة الآمال التي أطلقتها الثورة العربية كالردة من القماقم، كانت كل صدمة تأخذ عند الرواد أبعاد الفاجعة.

وما كان أكثر الصدمات. وما أقسى... وروح الزركلي كانت... أرأيت موج البحر في انقلابه المستمر على ذاته؟ كانت لطمات الواقع تستثير للصراخ الحاد، للرفض، ليقول «الكلمة» والكلمة كالنار إن لم تتخلص منها في لحظتها، أحرقتك. وبالرغم من جبروت القوى التي كان الزركلي يرفضها، فقد ظلّ يقبل تحديها سنوات.

اللعبة المستحيلة بين الكلمة والقوّة لعبها حتى النهاية. أقسى ما تستطيعه القوة ضدّ الكلمة هو إعدام الجسد الذي يحملها. أما الكلمة فخالدة، إنّها التّحدي

الأبدي. ولقد حُكم الزركلي بالإعدام مرتين... وإذا لم تطل جسده القوة الغاشمة، فإنها لم تطل - وهيهات لها أن تطول - كلمته... وقد يُقال: إن شعر الزركلي كان غنائية طوباوية، صلاة للأقانيم الأبدية: الوطن، الوحدة، العرب... بكائيات سادية قديمة تنزل بالسّياط على الدهر والنائبات والخونة، وليست النار. إنها إيقاد اللّهب في الأعشاب وليست الثورة. هي تعويض عن الفعل.

عملية تهيئة للوجدان القلق، ولهذا تستبدل بالعمل اللعب اللفظي. وتهرب إلى الماضي بدل اقتحام المستقبل، فالثورة بالنسبة إليها ليست تجديداً للذات، ولكنها موضوع للوصف والغناء ونظم الحسرات، قوافي متوالية كقوافل الجمال تعبر الأفق والغسق...

وقد يقال... وقد يقال... على أننا لا ننسى أن الثـــورة لعهد الزركلي لم تكن قد حدثت بعد، لا في الناس ولا في الكلمة. كان ذلك الشعر هو المعادل الثقافي للجهاد الأعشى في ذلك العصر: جهاد الفرس ضد الدبابة، والسّيف ضد المدفع، وهوج العاطفة ضد تخطيط الاستعمار، وهو اللغة الوحيدة ونقد التعامل المقبول في السوق. شعر الزركلي كان ابن عصره، ومع قمم العصر ركض...

ومع ذلك فإني أزعم أن الزركلي، برغم «الحذاء الصيني» الذي كانت تلبسه القافية في عصره وعنده، تمرّد وجدّد. كان يرى في الغبش إطلالة فجر جديد في الكلمة الشعرية، وكان يحاوله. صحيح أن شعره ما يزال يلبس العباءة والعقال ويحتبى بقطعة حبل، ويلعب السيف والترس في الحفلات، لكنّه مع ذلك لوى العقال على جانب، وترك العباءة تلوح أحياناً على أحد الكتفين، ولعب السيف والترس ولكن... أعطاه بعض الأحيان الإيقاع الجديد! ومع أن غبار الصحراء ظلّ عالقاً بلحيته، والوفرة السابغة، إلا أن أنفاس الربيع المقبل كانت فيه، التجديد كان يأخذ شكل الموشحات عنده، والتحرر من إرهاب

القافية الواحدة كان يطلّ بين آونة وأخرى... وقشرة العمود الشعري، على تقليديتها العريقة الألفية، كانت تتشقق.

وإذا كان فيه رنين الخلاخيل البدوية، فقد كان فيه في الوقت نفسه، بعض من «الجاز» الشعري القـــادم... على أني موقنٌ بأن قضية الشعر لم تكن قضيته. كان الشعر بالعكس شعر قضية. كان يرجو أن يكون نفخ «الصور» في اليقظة العربية، أن يكون الثورة... فلمّا طوّقه اليأس حتى الصمت القاتل، صرخ:

فإن أصمت فمــا للعــيّ صــمتي وبعض القــول يحــبس بالغمــام

فودعــت المحبــب مــن بيــاني وآثرت السكوت علــى الكــلام[1]

بلى! قال الشعر الكثير في مرحلة الصمت... ولكنه كان شعراً للصمت... للتذوق البياني الحلو، ولهذا توارى في الزحام! يوم كان للحيرة، للقضية الاستقلالية، للبحث عن مستقر للجهاد يرمي بشرر كالقصر، للعرب والوحدة: بينهما برزخ لا يبغيان...» [2].

«وشعر خير الدين، رحمه الله، فيه ردّ مؤكد على أولئك الذين يزعمون أن القافية في القصيد تكبّل الشاعر وأن الوزن يحرجه ويأسره، فإذا قرأت هذا الشعر، أحسست بالماء القراح يسيل هادئاً ليناً، وبالنسمة الباردة تمرّ وانية رهوة، وتنشقت عطر الزهر يملأ المكان، ووجدت الحياة أُنساً ومرحاً.

كان خير الدين شاعراً متفائلاً، أحبّ الحياة، وأحبته الحياة، فهو حتى في شعره الحزين الباكي لا يفقد أمله ولا يضيّع رجاءه، يذكر مآسي المستعمر، ثم يهيب بالمُسْتَعْمَرين أن يعملوا للخلاص من حكم الأجنبي، وينظر

---

(١) الزركلي، الديوان ص ٣٢٥.

(٢) مجلة الثقافة ص٨ - عدد شباط ١٩٧٧ ــ كلمة للدكتور شاكر مصطفى.

إلى القمر في سمائه، ويرى نفسه هائماً مشرّداً قد خرج من بلده دمشق مضطراً فيصف القمر، ويتحبب إليه ويأنس به، وكأنه قد غرق في جمال الكون غرقاً أنساه ما هو فيه من بؤس وألم وتشريد. لقد عاش خير الدين للشعر والحب والجمال، وعاش محبّاً لوطنه، فكان صوتاً من الأصوات الرنّانة المجلجلة التي دكّت الاستعمار أيام الثورة السورية الكبرى، ومن منّا لا يذكر:

الله للحـــــدثان كيــــف تكيــــد   بردى يفيض وقاســيون يميــد[١]

أو يذكر:

الأهــل أهلـــي والـــديار ديـــاري   وشعار وادي النيربين شــعاري[٢]

أوي ذكر بخاصة قوله الرائع، يصف خذلان المستعمرين أمام الثوار العرب:

ستروا بضرب الآمنـــين فـــرارهم   فاعجــب لعــارٍ ســتّروه بعــار[٣]

وأنت لا شك تعجب معي لهـــذا الشعر الرّصين، يخطر في ألفاظه البديعة السّهلة القوية، ويميس بقوا فيه الهادئة المطمئنة في أخريات الأبيات، كما تعجب لهـــذه المعاني الواضحة الصريحة العميقة، الجـــديدة، ولعمري، إنها ملكة الشـــاعر الكبير، يتصرّف بها تصرّف العارف بالفنّ الواثق من عبقريته وإلهامه[٤].

وقد نحا في شعره منحى المتقدمين من حيث الجزالة والمتانة والأسلوب، وجمع إليه النمط المرغوب عند المتأخرين من حيث الوزن والوضع، فجاء شعره آية في الإجادة، وغاية في شعره، حتى يخيّل إلى

---

(١) الزركلي، الديوان ص ١١٦.

(٢) نفسه ص ٢١٠.

(٣) نفسه ص ٢١٢.

(٤) صحيفة الثورة ــ العدد ٤٢٥١ ــ ١٩٧٦/١٢/١١. مقالة للأستاذ الشاعر أحمد الجندي.

الإنسان أن تعمد الإغارة على معنى سابق إليه، ولفظ أحكم حوكه غيره، كقــولـــه:

وما الموت إلا ســبات عميــق　　　ففيم البكــاء علـــى الهـــاجع[١]

وهو مأخوذ من قول أبي العلاء المعري:

الموت نوم طويل لا هبوب لـــه　　　والنوم موت قصير بعثــه أمــم

وقولـــه:

إنّمـــا الـــشعر سلـــسبيل زلال　　　كيف يدري الــزلال مَــنْ مَــرَّ

وهو مأخوذ من قول المتنبي:

ومن يك ذا فــم مــرّ مــريض　　　يجد مــرّاً بـــه المـــاء الـــزّلالا

غير أن ما عرف ما أوتيه خير الدين من غزارة المادة وجودة القريحة، يستبعد منه أن يتعمد مثل ذلك. على أن بين المعاني التي استعمل فيها هذه الكلمات والتي استعملها غيره فيها ــ فرقاً بيّناً، وخلافاً جليّاً[٣].

وشعر خير الدين الزركلي، شبيبه بالشعر العباسي في وصف الحروب، لا يكاد يختلف عنه في الديباجة والصنعة، بل يرقى إلى الشعر الموسيقي فيه ،ويتقرّب من شعر البحتري في وصف المعركة: وهو في الشعر السياسي لا يكاد يعلق بوحدة للقصيدة، فما عرف الزركلي في الحماسة طريقة <مطران> معرفة متينة، ولم يتعلّق بها، وإن كان قد أصاب في بعض قصائده وحدة المعنى والموضوع. وبقيت الأبيات منفردة لا تتمسك غالباً. وذلك لعكوف الشاعر على شعر القدماء، وكلفه بالفحول منهم. ولولا أنّ شعره تطرّق إلى

---

(١) الزركلي الديوان، ص ٣٤٦.

(٢) الديوان ص ١٥٨.

(٣) الكيالي، سامي، الأدب العربي المعاصر في سورية - دار المعارف بمصر ص٢٦٢.

مستحدثات العمران والحضارة، وتعابير الدهاء والسياسة للصق أكثر بالشعر القديم في معناه وفي مبناه، وفي ذلك إطراء به من وجه واحد، وهو براعته في الصيغة العربية، وتحليقه في موسيقا اللفظ وصحة التعبير ورشاقة التصوير وخفة الظل[1].

وهناك ظاهرة عنايته بالموسيقا المتنوعة الأنغام التي تتجلى فيما نظمه من أناشيد وطنية كثيرة ذات أوزان خفيفة قصيرة أو مجزوءة، ولكن بعض قصائده تشبه ما هو عند شعراء المهجر ــ وخاصة الشمالي ــ من استعمال بعض البحور المجزوءة أو المشطورة، أو إضافة تفعيلة، ليكون النظم مناسباً للمضمون، مثال ذلك قصيدته (يا زمان):

من تُرى تبسم لي يا زمان	ــ ألا حنان
أسلمتني لا أُنس لا أمــان	ــ للحــدثان
أبكي ديـــاراً خُلقت للجمال	ــ أبهى مثال[2]

وهكذا تجري القصيدة على هذا اللون من الموسيقا الجديدة التي تختلف عن موسيقا الشعر العربي القديم، ويبدو أن ألم الحنين إلى الوطن، هو الذي ألجأ الشاعر إلى هذه الموسيقا الحزينة المناسبة للموقف الذي نظمت فيه. وللبرهان على عنايته بالموسيقا، نضرب مثالاً آخر، قصيدته (تأمّلات) التي تدل نغماتها على تجربته في الحياة الحزينة، وفلسفته الحكيمة، وخروجه منها بتأمّلات متشائمة، يقول:

تعـــــــــــب أم لعــــــــــب	**وجــــــــــوىً أم طـــــــــــرب**
مــــــا الحيـــــاة المـــــشتهى	**صـــــفوها؟ مــــــا العطــــــب؟**
صـــــــــــور تبـــــــــــدو	**وســـرعان مــــا تحتجـــب...!**

(١) الدهان، مصدر سبق ذكره ص١٦٢.

(٢) الزركلي، الديوان ص ٣٤.

ويعبّر فيها عما يراه في هذه الحياة من متناقضات، ومفارقات، فها هنا قصور وناعمون، وهناك أكواخ وبائسون، ثمّ ماذا؟

يعجـــــب المــــــرء ومــــــا	**هـــــــــو إلا عجــــــــــــب**
يتمـــــــــــشى صــــــــــاخباً	**وعــــــــلام الـــــــــــصّخب**
إن يفتـــــــــــــــــــــه أدب	**لــــــــم يفتـــــــه نـــــــشب**

ووزن هذه الأبيات (فاعلاتن فاعلن)، وهي من بحر (المديد). ولكن مع حذف التفعيلة الثالثة في كل شطر وهذا التجديد في الموسيقا لم نره مألوفاً ولا معروفاً عند القدماء ولا المحدثين، إذ لا مجزوء لبحر (المديد)[(١)].

هذا هو الشاعر الذي أشاع الحياة في ألفاظه، والقوّة في معانيه، وسكب روحه أنغاماً يهدهد بها الوطن الجريح آونة، ويثير بها العزائم آونة، كل ذلك في أسلوب يتميز بالعمق والأصالة، ويحفل بالإشراق والوضوح ويطفح برهافة الحسّ ولطافة الجرس. فشعره كما يقول «موسّه **Musset**» كالماسة، واللؤلؤة، وقطرة الندى، ولكن فيها كل معاني النّور والبحر، والفجر.

هذا هو خير الدين الزركلي، الشاعر البطل الذي فاق الأبطال حين أوحى إليهم ما يفعلون، أليس الشعراء والأبطال - كما يقول «لامارتين Lamartine» من سلالة واحدة، لأن الأبطال يفعلون أبداً ما يتصوّره الشعراء[(٢)].

---

(١) حركات الشعر في العصر الحديث ص١٩٠. د. عزيزة مريدن.

(٢) علم الأعلام ص٢٧٣ ــ كلمة للأستاذ أنور العطار.

صورة عن الحكم الصادر من المجلس العسكري الحربي للفرقة الثالثة الكائنة في دمشق، المنشور بالعدد ١٦١ الصفحة الثالثة من جريدة العاصمة، تاريخ ٧ تشرين الأوّل ١٩٢٠.

الجمهورية الفرنسية

المجلس العسكري الحربي للفرقة الثالثة الكائن بدمشق

حكم باسم الأمة الفرنسية

لقد أصدر المجلس العسكري الحربي المُشار إليه، والملتئم الآن بدمشق بتاريخ ٩ آب سنة ١٩٢٠ باتفاق الآراء. وبعد سماع مقررات وادعاءات المفوض العسكري حكماً على عبد القادر سكر وشكري الطباع وأحمد قدري وخير الدين الزركلي، وتوفيق مفرج، وخليل بكر ظاظا، ورياض الصلح، وعمر بهلوان، وحسني رمضان، وعثمان قاسم، وتوفيق اليازجي، وبهجت الشهابي، ورفيق التميمي، ومحمد علي التميمي، وحكم بمثل الأحكام الآنفة الذكر في ١٤ أيلول سنة ١٩٢٠، على علي زلفو السوري المولد، والقاطنين بدمشق، حيث ثبت أن المذكورين استعملوا التدابير المادية وقواهم العقلية - بمعاضدة أعداء الحكومة الفرنسية، وتحبيذ مشاريعهم، فبعملهم هذا عدّوا مجرمين ومستوجبين المجازاة وفقاً للمواد ٦٣ و٢٠٥ من القانون الحربي العسكري وقانون ١٤ نوفمبر سنة ١٩١٨ ـــ فلهذه الأسباب وطبقاً للمواد المذكورة، حكم عليهم بعقوبة الإعدام وبمصادرة جميع أملاكهم كافة، وحكم عليهم أيضاً وفقاً بمادتي ١٣٩ من قانون العقوبات العسكرية و٩ من قانون ٢٢ يوليو سنة ١٨١٧ بتغريمهم جميع مصاريف المحاكمة، على أن تحصل من أموالهم وتدفع إلى خزينة الحكومة الفرنسية رأساً.

وأن الحكم الحالي أصبح متحتم الإنفاذ من يوم ٩ آب سنة ١٩٢٠، ومن ١٤ أيلول على الأخير، ومصاريف المحاكمة تبلغ ٩٨٠ فرنك.

قصائد شعرية قيلت

في رثاء الشاعر خير الدين الزركلي

دمعة على شقيق الروح

خير الدين الزركلي[1]

قصيدة الأستاذ الشاعر

سليم الزركلي

«ابا الغيث» رُدَّ عليَّ صوابي ... أحقّاً قَضيْتَ وخابَ ارتقابي

فيا فرحةً باللقاء السّعيد ... تصير إلى حُرْقَةٍ واحْتساب

رجَعْتَ لأهلك بعد الغياب ... تُواسيهم قبل وَقْعِ المُصاب

رجَعْتَ إليهم خفيف الظّلال ... رفيع المقام، عزيز الجَناب

وكُنْتَ نأيْتَ ولم تكتحل ... جُفونكَ يوماً بغير احتراب

هجرت الديار إلى منتأى ... صليبِ المسالك، جَمّ الصعاب

بصدرك عَزْمٌ يفلُّ الهمومَ ... ولَلْحُرّ يأبى هوانَ اغتصاب

رحلْتَ، وقد روّعَ الآمنين ... بلاءٌ، وجاست جيوش الذئاب

أحلّوا دماً في عُروق تلظّى ... وروحك بين ضلوع غضاب

قضوا أن تموتَ، ونجمك حيٌّ ... ففتّهم في انطلاق العُقاب

---

(١) مجلة الثقافة ــ عدد شباط ١٩٧٧ ــ.

ورِوّعـــــتهم بلهيـــــب القــــوافي وعــرّيتهم فـــي جُلــود انتـــداب

بَعُدْتَ و«شـــامكَ» نَهْـبُ الرزايـــا تقلــب فـــي ضَــرَمٍ مــن حــراب

أباحوا حماهــا ومــا كــان حِــلاً فَفــضّ ثراهــا بــذوب الـــشّباب

يـــسيل نجيعـــاً علـــى منكبَيْهـــا فتلقفـــــهُ حانيــــاتُ القِبـــــاب

حملْــتَ الجــراح علــى راحتيــك ولحــن الجــراح نــشيج الربــاب

تهدهــدها فـــي ابتــسام الــصباح تنـــزّ حقـــوداً ليـــوم الحِـــساب

ومـــرَّ الزمـــان طـــويلاً طـــويلاً وأنـــت علـــى حَـــزَنٍ واكتئـــاب

تُنـــاجي الـــديار، ومَـــنْ بالـــديار وما من مُجيبٍ، وما مــن جــواب

تُعلمهـــم كيـــف يـــأبى الهـــوانَ أبـــيٌّ، وكيـــف فنـــون الغِـــلاب؟

وهبّــت جحافــل فـــي الغــوطتين وثارت كواســر فـــي كــلّ غــاب

تـــذودُ الفواجـــعَ والغاصـــبين وتحمي الحِمى من أذى واســتلاب

فكُنْـــتَ إليهـــا الرَّســـول الأمـــين بين الــشّعاب، وبــين الهــضاب

تـــشدّ العـــزائم، تَغلـــي انتفاضـــاً وما بــك مــن خــشيةٍ واجتنــاب

* * *

أ«خيـــرَ» الأقـــارب والأبعـــدين و«خير» الصّديق، و«خيرَ الصّحاب

وســـعْتَ الرجـــال بحلـــم الحكـــيم ونُبْـــل الحمـــيم،وفجّ الرحـــاب

ولُطف الأنيس، وأُنْــسِ الجلــيس بطـــول أنـــاةٍ، وصـــبْرِ عجـــاب

غـــذوتَ القلـــوب بحلْـــوِ النـــشيد ورُضْتَ العقـــول بـــسحر الكتـــاب

حَــذَفْتَ الــسياسة، فــنّ الحيــاة فلـــسْتَ تمـــينُ، ولـــسْتَ تُحـــابي

وجُبْــتَ القفـــار مـــع النّاهــضين بصدق اليقين، وصـــدق الطـــلاب

وضـــعنا الوشـــائج قُرْبـــاً وبُعـــداً لــ«ستين» مرّت كطّـــي الـــسّراب

يُعَزيننـــــا بالهُـــــدى والبيـــــان ويرعيننـــــا بالرضــــا والحِبـــــاب

نُحـــسّ جـــراح العُلـــى والهَـــينِ فترويـــــه مـــــن دمنـــــا باللّبـــــاب

ونحفِــــزُ للمجـــــد أخيـــــاره ونحْــــدُو مروءاتـــــه للوثِـــــاب

لقد كنـــت لـــي أقـــرب الأقـــربينَ وأنت الـــشقيق، إلِيـــك انتـــسابي

طبعـــت بروحـــك قلبـــي الفتـــيّ فـــشبَّ حليـــف الأمـــاني العـــذاب

يرى العزَّ فـــي وطَـــنِ الأكـــرمينَ ويضنى له فـــي احتمـــال العـــذاب

أتـــابعُ خطـــوك أنّـــى ســـريْتَ إليك طريقـــي، ومنـــك اكتـــسابي

عــــلام مــــضيت وخلفتنـــــي وحيـــد الجنـــاح لِظِفْـــرٍ ونـــابِ؟

وكُنْـــتُ أخـــاف عليـــك الـــردى فتدمى ضـــلوعيَ عنـــد ارتيـــابي

وجـــــاء الأحبّـــــة والأوفيـــــاء يُعزّوننـــــي، نعـــم أجـــر الحُبـــاب

وكيـــف الـــسلّو، وأيـــن العـــزاء وحُزْنُ «خُناسٍ» شعاري ودابـــي

أُســـقّيه نفـــسي صـــباح مـــساء إلـــى أن يُهـــال علـــيَّ تُرابـــي

* * *

سأُضـــمرُ وجـــديَ فـــي مُقْلَتـــيَّ يُفطـــر قلبـــي، ويفـــري إهـــابي

وأقضي الليـــالي نجـــيَّ الـــسُّجون وهيهـــات يلطـــفُ حـــرٌّ مُـــصابي

وأُرخص فيــك الــدموع الغــوالي وأُغلِــق دون الــسّوانح بـــابي

قــضيت حياتــك رَهْــنَ اغتــراب وآن أوانـــي، وحـــان اغترابـــي

* * *

عـــزاءً «أميَّـــةُ» عـــن شـــاعرٍ تـــألّق فيـــك ائـــتلاق الـــشّهاب

عزاءً «دمـــشق» وأنـــت الهـــوى وفيـــك طَوَيْنـــا عُقـــودَ الـــشّباب

عزاءً «شـــآم» العُلـــى والجهـــاد «شآم» الصبى، وَمِهاد التّــصابي

عزاءً لـــ«دُنيا العروبـــة» ولهـــى منابرُها فـــي أســـى واضـــطراب

تحـــــنّ لألاّفهـــــا الغـــــاربين وكانوا الهُداة، وفـضل الخطــاب

تحـــنّ لفرســـانها المُلْهَمِـــينَ وقد رقدوا فـــي مطـــاوي الغيـــاب

عـــزاءً لكـــلّ نِجـــارٍ أصـــيلٍ لكـــلّ دَمٍ فـــي الرُّبـــوع الرّطـــاب

عزاءً لـــ«دنيا على الشام» تنـــدى مراتعهـــا بـــالحنين المُـــذاب...

عزاءً لـــ«عـــصفورة النيـــربين» وللطّير تـــسرح فـــوق الرّوابـــي

لـــدنيا المفـــاتن فـــي الغـــوطتين لـــدنيا النـــضال،وساح العـــراب

لشمس المُروج تـــراقص جـــذلى لـــشمس مجللـــةٍ بالـــضّباب

عزاءً لـــــ«جلّـــق» والأمـــسيات موشّـــحةٌ فـــي ســـواد الخـــضاب

عشية كـــان «الهـــزارُ» الغيـــورُ يُطربهـــا مـــن وراء الحجـــاب

يُغـــــرّد للقمـــــر المـــــشرئبّ ضـــحوكاً تـــستَّرَ خلـــفَ الرَّبـــاب

يُـــسائله، والخطـــوب الجـــسام مُحوّمـــةٌ، فـــي رقيـــق العتـــاب

أتــضحك فــي وَجنــات الــسّماء　　　وجنّتنا مــن شَــجا فــي عُبــاب

* * *

«أبا الغيث» نم في ضمير الزَّمــان　　　شهيد النّوى، والمرامي الرغــاب

وَقــرَّ نزيــلَ جنــان الخلــود　　　عليـك الـسّلامُ، رضــيَّ الإيـاب

فقد كَنْـتَ بَـراًّ، شـديد الوفـاءِ　　　نقــيَّ الــسريرة، عــفّ النقـاب

لــئن أنكــرت زُمــرة الأدعيـاء　　　مجالــك فــي داميــات الــشعاب

تــزفّ عــذاراك للرابــضين　　　تــؤجُّ حفــائظهم كاللّهــاب

فلــيس يــضيرك هــذا الجحــود　　　وما بــك مــن مطعــن أَوْ مَعــاب

فللــوطن المُفتــدى مــا عَمِلْــتَ　　　ولــيس لِغُــنْمٍ، ولا لاكْتِــساب

ولِلْعِلْــمِ جُهْــدُكَ والعــارفين　　　ولا من جــزاءٍ، ولا مــن ثــواب

مَهَرْتَ الحقيقــة، شــمس الحيــاة　　　عُــصارة قلــبٍ نــدي الحَبــاب

نَــصلَتَ العبــاقر نــصل الــسهام　　　ونــضَّرتهم فــي بــديع الإهــاب

عزاءً لــ«أعلامــك» الخالــدين　　　وقد سَفَروا بعــد طــول انتقــاب

تُرَصّــعُهُم بالبيــان الأنيــق　　　منــائِرَ فــي شــامخات الكتــاب

«دمشق» ثوى في التراب الحبيب　　　وكــلّ حبيــبٍ غــداء التــراب

حَــضَنْتِ حداثتــه والــشباب　　　فكان «النّقــاب» خطــيّ الرّكــاب

وكــان لــسانَك فــي الفاجعــاتِ　　　وكــان ســنانَك يــوم الــضراب

تمنّــى ظلالــك تحنــو عليــه　　　فينــشى بريحــك عنــد المــآب

فــشقّ الــضريح بعيــداً بعيــداً　　　وعزّ على الــسّيف دفءُ القِــراب

وفينـــا بعهـــدكِ رغـــم العُقـــوق وفـــيضُ أياديـــكِ طَـــوْقُ الرّقـــاب

عـــشقناكِ فـــوق حـــدود الهـــوى بأفئـــدةٍ نُزِّهـــت عـــن كـــذاب

وهِمْنـــا بَـــدْهرِكِ يـــصفو ضـــياءً ويكسو الحضارة زَهْـوَ الحِقـاب

لـــك المجـــدُ مـــا خفقـــتِ أنجـــمٌ وَحَنَّـــتْ إليـــك صُـــدور الـــسَّحاب

سليم الزركلي

٥ /١ /١٩٧٧

*   *   *

دمعة وفاء[1]

قصيدة الأستاذ أحمد عبيد

«أمين التراث العربي»

في رثاء خير الدين الزركلي

ما بقائي وقد مضى إخواني ... ودهاني بالقارعات زماني

كل يومٍ أرى المنايا كِفاحاً ... تنتحيني بما يهدّ كياني

كم صديقٍ بَرٍّ وكم من شقيق ... كان لي عدةً ودرع أمان

كُنْتُ أرعاه مشهداً ومغيباً ... مثل ما كان منعماً يرعاني

غاب عني فلات حين تلاق ... غير أني أراه مِنكَ جَنَاني

ربّما مَرّت السّنون دِراكاً ... لا أراه فيها وليس يراني

فإذا مَنّت الليالي بقرب ... فكأنا لم نفترق لثواني

قد رضعنا صفو الوداد شباباً ... وكأنّا كنّا رضيعي لبان

والوفاء الذي عقدنا عراه ... ما اعترته عوامل الإيهان

أن يفرّق ريب المنية جسميْـ ... ـنا فإنا روحان مؤتلفان

---

(١) علم الأعلام ص٢٧٧ ــ.

أو يكــن موتــه نــذير تنــاءٍ فوفــاتي غــداً بــشير التــداني

قلّمــا ترجــئ المنيّــة حيّــاً بعــد فــوت اللّــدات والأقــران

يا أبا الغيث غيـث وجـديَ هـامٍ واصطباري على الفجيعـة فـاني

والأســى لاذعٌ جوانــب نفــسي بجحــيم تثــور كالبركــان

وشؤوني أبت علــيّ فمــا تطـــفئ ما في الضلوع مـن نيـران

أين تلــك الأيــام كيــف اسـتقلّت بالصفّي الرضــيّ مــن خُلْـصاني

إنّ في القلب حسرةً مـا يجلّيـــها سوى الرتعِ في رياض الجنان

يــا خليلــي ومــا أبــرّك خــلاً مــستقيم الإســرار والإعــلان

كُنْتُ أرجــو بــأن تخلّــف بعـدي فــأوقّى لـــواعج الأشـــجان

غير أن القـضاء يجـري بقَـدْرٍ فتحــول الآجــال دون الأمــاني

لــيس بينــي وبــين لقيــاك إلا لمح طرفٍ أو خفـق قلـبٍ عـان

أنت أنــشرت فــي كتابــك أعـلا ماً طوتها القـرون فـي الكتمـان

وجمعت الـشتيت مـن مَـأْثُراتٍ لهــم مــوجِزاً بــسحر بيــان

مــن نبــيّ ومــن خليفــة رشـدٍ قــام يــدعو بــدعوة الإيمــان

وأميـــر وقائــــد وحكـــيم وعلــيم بكــلّ فــنّ وشــان

وفقيــهٍ وشــاعر وأديـــب مــن فحــول الرجــال والنــسوان

سَــلَفٌ صــالح وخَلَــفٌ حميـدٌ كــم أقــاموا للعلــم مــن أركــان

ولسوف الأيام تنــشر مــن ذكـــرك عطراً يفوح فــي الأكــوان

ولك الــشّعر كالــدراري ائتلاقــاً واتّــساقاً كمثــل عــدّ الجُمــان

هو في حالــك الخطــوب ضــياءٌ   يطرد اليأس عن جَنــان الجبــان

وهو في موكب الــسلام أغاريــد   لها في النفــوس وقــع الأغــاني

أَنْــذروكَ الحِمــام حــين نَــذَرْتَ   النفس ذَوْداً عن حرمــة الأوطــان

وطــن العــرب واحــدٌ فــسواءٌ   مغربـــاه لـــديك والمـــشرقان

أي رزءٍ عــرا ولــم تــك فيــه   شــاعراً ناطقــاً بكــل لــسان

بــشواظٍ مــن ســائرات القــوافي   تقذف الخصم في مهاوي الهــوان

وتعيـــد الآمـــال مؤتلقـــات   وتبـــثّ الأرواح فـــي الأبـــدان

*   *   *

إن هــذي الحيــاة ومــضة بــرقٍ   تختفــي بعــدها عــن الأعيــان

ثــم نُجــزى بمــا جنتــه اليــدان   مــن جميــل الآثــار بالإحــسان

فإذا ما رأيــت ثــمّ رأيــت الـــ   ـملك يزهــى بعبقــريٍّ حــسان

فعلــى الــشعر والبيــان ســلامٌ   وعلى الخيــر رحمــة الرحمــان

أحمد عبيد

*   *   *

نحن السُّقاة العطاش[1]

القصيدة التي ألقاها شاعر حمص
الأستاذ عبد الرحيم الحصني في حفل تأبين
المرحوم الشاعر خير الدين الزركلي

اثنان ما عرف التــاريخ مثلهمــا   علم، وثورة إنسان، وأنــت هُمــا
تجسدا بك من فجر الشباب، فلــم   يُسْمع زئيــرك إلا خالــصاً لهمــا
كم انتشيت وكــم أخلــدت معتكفــاً   عليهما؛ وكم استأنــست عنــدهما
أيام كنت، وكان الــشّعر محتجــزاً   طيّ الصدور، وكان الجور محتكما
وكان ما كان من ظلم ومن عَنَــت   يحار متــسع الأوهــام بينهمــا...
مآثر من بقايــا الأمــس يعرفهــا   من عايش الأمــس لمــا اســتنفر
تلك الحكايات ما مــرت نــسائمها   بخاطر المجد إلا اختــال مبتــسما

*   *   *

يا قاطف الشّعر من كرم الإباء لقد   أصغيت للحق شعراً ناصعاً وَدَمــا
لما ألّمت بنا الأحــداث وازدحمــت   لم تُغْمِدِ الماضِيَيْنِ السّيف والقلمــا

---

(١) مجلة الثقافة ــ عدد شباط ١٩٧٧ ــ.

ولم تقف دون صدّ البغي مرتـــضياً لشعبك الشمم المجـــروح والبرمـــا
حتى انجلى بجلاء الظلم كـــل غـــد مؤمل، واســـتقر الـــشمّل والتأمـــا
عجبت كيف يـــرام العـــزّ مكتـــسباً والمجد. ما كان بالإيمان مقتـــسما

* * *

مهلاً أبا الغيث للفيحاء منك هـــوى مازال في كل سمع ينـــشر النَّغمـــا
أهديتها كل ما أبـــدعت مـــن قبـــل فكيف تحجب عن تلك الشّفاه فَمـــا
لا ساكناً ألفـــت يومـــاً ولا ســـكنا عيناك يوم رأتْ غير الشآم حِمـــى
لئن سعيت لأفيـــاء الحجـــاز وقـــد حباك عاهلهـــا الإكـــرام والنّعمـــا
فلست أوّل حرّ في الخطوب جنـــى من ظلّها المُشتهى واستبعد السّأما
لكنّما الـــشّام مـــا مـــرّت بثانيـــة إلا انبرى الشوق فيها والوفاء نما
وها هي اليوم لا آهاتهـــا ســـكنت على نواك، ولا ميثاقهـــا انـــصرما
وللمحبـــــة ألــــوانٌ وأصــــدقها ما أجّج القلب لا ما رصع الكلمـــا

* * *

يا مشرق المجد، يـــا فيحـــاء مـــا شمس العروبة أندى من رباك سَما
بـــك ازدهـــت معجـــزات الأمـــس من راحتيك الفدا والكبر والـــشّمما
والشّعر مذ كـــان فـــي أحـــضانك دنياه فانساب لحناً خالـــداً وســـما
كذا عرفتك يا فيحاء من صـــغري غيثاً على كل أغراس الجمال همى
مالي أرى اليـــوم ســـوق الـــشعر بجانبيك، ووهـــج اللغـــو محتـــدما
والجانحين عداة الضاد ما رحمـــوا باسم ــ الحـــضارة ــ أمجـــاداً ولا

قد مثّلوا الطهر (يا للظلم) محتقـراً وصوروا ـ العهر ـ (يـا للعـار)

وزيّفوا اللغة العصماء وانتهجـوا ما حلّ من سبل الدنيا، وما حرمـا

إني أُنزّه قـومي عـن غـوايتهم وكل جانٍ سيلقى شرّ مـا اجترمـا

* * *

فيحاء ذكرك موقوف على شـفتي شعراً ندياً ووجـداً ظامئـاً نهمـا

ردّي لعيني وجه الشام وانتزعـي كل المساحيق إن الوحي ما عقمـا

فالودّ أسـعده مـا كـان متـصلاً والعهد أتعسه ما كـان منقـصما

يا لهفة نحن أولـى باسـتجابتها من البرية، إن الشّعر مـا هرمـا

نحـن الـسقّاة العطـاش، مـن هذا العطاء ولو متنا عليـه ظمـا

عفواً أبا الغيث إنّ الداء ما انحسما والجرح رغم الأساة الـصيد مـا

وأين والمحن الرعناء ما برحـت وما تزال ألـوف تـسكن الخيمـا

مشاهد يصفع التـاريخ واجمهـا كأنما العدل في إخراجهـا انهزمـا

* * *

طوت خوافي أحزانـي علـى ألـم إني لأعذر مـن لا يعـرف الألمـا

فالسّعد حيث يكون الجهل منفرجـاً والهمّ حيث يكون العقل معتـصما

* * *

يا شاعراً كان مِلْءَ السمع منتشياً وثائراً كان مِـلْءَ الـدهر منتقمـا

أكان حظّـك مـن دنيـاك متفقـاً والمعطيات اللواتي كنـت ملتزمـا

لا أحسب العمر وفّى كـل معتـزم من نعميات الأماني أَجْرَ ما اعتزما

كذا العباقرة الأفــذاذ فـــي بلـــدي وأيّهم من نيوب الدهر قــد ســلما

سيذكرونك بعد اليوم فـــي صَـــلفٍ إذا الأحاديث كانت ســيرة العظمـــا

يكفيك أنك في كل الـــصدور علـــى مرّ الزمان ضياء يهتـــك الظلمـــا

والمكرمات اللواتي كنـــت رائـــدها في كل صفحة خلد ســـجّلت رقمـــا

عبد الرحيم الحصني

*   *   *

«عَامُ الأَعْلاَمِ»[١]

قصيدة المؤلّف الشاعر
«أكرم جميل قنبس» في رثاء
«خير الدين الزركلي»

في ذمّة التاريخ «خَيْرُ» الشّام   عَلَمٌ على الأمجاد والأيّام

تروي قريحته النفوس، لأنّها   نَبْعُ الأصالة، وهي كأس الظامي

في كُلّ مفترق بأفق بلادنا   نُورٌ على أهدابه مُترامي

غنّى لهذا العالم العربي في   العصر الذي صلبوه بالآلام

مَسَحَ الظّلام عن العيون وكم رَنَتْ   لحروفهِ قيثارةُ الإقدام

يا «خير» أنت منارة الجيل الذي   وُلِدَتْ بيوم نهوضه أحلامي

يا حامل الشِّعر الأصيل رصاصةً   في صدر مَنْ جاؤوا لِظُلْمِ الشّام

إنّي أرى فيك العروبة كُلّها   وبكم تسامت كعبة الإسلام

خلّدت للتاريخ أحلى دُرَّةٍ   لمّا تركت وَديعة «الأعلام»

هذا الزمان على حروفك بَاعِثٌ   أقلامه، فامدد دم الأقلام...

* * *

---

(١) انظر ديوان ــ إليك يا حبيبتي ــ شعر أكرم قنبس ــ منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٩٢.

مراجع الدراسة

١ - الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ـــ أنيس المقدسي ـــ دار العلم للملايين ـــ الطبعة السابعة ١٩٨٢.
٢ - الأدب العربي المعاصر في سورية ـــ سامي الكيالي ـــ دار المعارف بمصر.
٣ - إليك يا حبيبتي ـــ شعر أكرم جميل قنبس ـــ منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٩٢.
٤ - جمر أشعل الرماد ـــ د. إسماعيل مروة، دار الجندي ـــ دمشق ـــ ط١ ٢٠٠٩.
٥ - حركات الشعر في العصر الحديث. د. عزيزة مريدن ـــ جامعة دمشق ١٩٨١.
٦ - ديوان الزركلي ـــ الأعمال الشعرية الكاملة ـــ مؤسسة الرسالة ـــ الطبعة الأولى ١٩٨٠.
٧ - الشعراء الأعلام في سورية. د. سامي الدهان ـــ دار الأنوار ـــ بيروت ـــ الطبعة الثانية ١٩٦٨.
٨ - الأعلام للزركلي ـــ الجزء الثامن ـــ الطبعة الرابعة ـــ دار العلم للملايين ـــ بيروت ١٩٧٩.
٩ - علم الأعلام ـــ خير الدين الزركلي ـــ صادر عن الإدارة السياسية في سورية ١٩٧٨.

١٠ - مجلة الثقافة السورية ــ عدد شباط ١٩٧٧ ــ لصاحبها ورئيس تحريرها مدحة عكاش.

١١ - صحيفة الثورة العدد ٤٢٣٦.

١٢ - صحيفة ريدة تشرين عدد /١٩٧٧/٢/١٠.

١٣ - صحيفة الثورة ــ العدد ٤٢٤٠.

١٤ - صحيفة الثورة ــ العدد ٤٢٥١.

* * *

الفهرس

د. أكرم جميل قنبس

* مواليد ١٩٥٨م - مدينة الحارّة في محافظة درعا - حوران - جنوب سورية - بجانب قرية جاسم مولد الشاعر أبي تمام.

- حاصل على إجازة في الأدب العربي من جامعة دمشق. ودبلوم في التأهيل التربوي من كلية التربية بجامعة دمشق. ودبلوم في الطب النبوي وعلوم الأعشاب من الكلية المحمدية - باكستان - ومن المعهد العربي للطب للنبوي وعلوم الأعشاب - الشارقة (دولة الإمارات العربية المتحدة). ودكتوراه فخرية بالعلوم الصحية والطب البديل.

- عمل مدرساً للغة العربية، وهو الآن يعمل موجّهاً لمادة اللغة العربية في دولة الإمارات منذ عام ٢٠٠٧. وعضو اتحاد الكُتّاب العرب - سورية. (منذ عام ١٩٩٤). وعضو اتحاد كُتّاب وأدباء الإمارات (الشعر والدراسات). منذ عام ١٩٩٤. وعضو الاتحاد العام للأدباء والكُتّاب العرب - الأمانة العامة.

له دراسات شعرية منشورة منها:

- اللهب المجدول - دمشق ١٩٨٨م. ورحلة في عيون - دمشق ١٩٩١م. وصلاة على روح امرأة - دمشق ١٩٩٢م. وإليك يا حبيبتي - دمشق ١٩٩٣م. ولهيب الانتماء - دمشق ١٩٩٦م. وصهيل في مرابع المجد - الشارقة ٢٠٠٠م. وأبابيل الأقصى - الشارقة ٢٠٠١م. وقمر الحجر - مجموعة شعرية للأطفال - دولة الإمارات العربية المتحدة ٢٠١٠. وليل جيكور - الشارقة ٢٠١٠م....

الطبعة الأولى / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة





www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ١٠٠ ل.س أو ما يعادلها